# الفصل السابع

# طوائف من الشعراء

## ١

## شعراء الغزل وشاعراته

ظل تيار الغزل حاداً في العصر، وظل الشعراء ومن أن ينطق به من الجواري ينظمونه، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعاني، ويخيل إلى الإنسان كأن كل من شدا بالشعر نظم فيه، مصوراً ألواناً من هذا الحب الذي كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كل شيء. وكانوا ينظمونه في نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما في العصر العباسي الأول، ونقصد اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء، بسبب كثرة الإماء ودور النخاسين التي كانت تزخر بالجواري من كل جنس: روميات وفارسيات وغير فارسيات ورومیات. ويصور الجاحظ في رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كن يشعن في جو بغداد من التحلل الخلقي، فكان طبيعياً أن تنفق سوى الغزل المادي، وخاصة أن القيان والجواري كن يكثرن من التغني به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية، فسعرن قلوب الشعراء شباناً وكهولاً، ولم يعودوا يستطيعون أن يردوا أنفسهم إلى شيء من القصد، فقد أخذ الحب الصريح يثور في نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حراً، بل حاراً له حرارة الحمى.

وظل اتجاه الغزل العفيف النقي الطاهر حياً بجانب هذا الاتجاه، وكانت تمده أسراب كثيرة من غزل العذريين في العصر الأموي ومن غزل من ساروا في دروبهم من شعراء العصر العباسي الأول أمثال العباس بن الأحنف، غزل له حماه ولكن بثوره لا تظهر على الجسد، غزل قوي حار، لا يعرف المتاع المادي ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره، إنما يعرف ناره لمحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به، مهما أمل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرع، فليس هناك إلا العذاب وإلا تجرع الغصص واحتمال الأهوال والآلام، ولا مشفق ولا رحيم.

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف، يحيي معه هذه الحياة التي تضيف إليه خصباً فوق خصب، إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائماً من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعاني التي تصور لوعات الحب عذابه. ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين، فقد مرت من ذلك لمحة، إنما يكفي أن تذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعاً من خلفاء ووزراء وولاة

وكتاب ورجال ونساء، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة. وأكبر شاعر بين الخلفاء- وإن لم تبق خلافته سوى يوم وليلة- هو ابن المعتز، ومر بنا حديث مفصل عنه، وكان عمه المنتصر شاعراً، وله قطع مختلفة في الحب، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب، وفي مقدمتهم مغنية بنان، مما غناه به قوله[١]:

رايتك في المنام أقل بخلاً وأطوع منك في غير المنام

ولو أن النعاس يباع بيعاً لأغليت النعاس على الأنام

وكان أشعر منه الخليفة الراضي، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن، وروي له الصولي في كتابه: "أخبار الراضي بالله والمتقي بالله" طائفة كبيرة من أشعاره، وله قطعة تداولتها الكتب في ترجمته وهي في وصف جارية مغنية كان يفتن بها، وتجري على هذا النمط[٢]:

قد أفصحت بالوتر الأعجم وأفهمت من كان لم يفهم

جارية تحب من لطفها مخاطباً ينطق لا من فم

جست من العود مجاري الهوى جس الأطباء مجاري الدم

وكثير من الوزراء كانوا شعراء، ومعروف أنهم كانوا يختارون من صفوة كتاب الدواوين، وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه، فيعبر به عن عواطفه ومشاعره وأهوائه، وطبيعي أن يوقد الحب في نفوسهم الجذوة التي طالما أوقدها في نفوس المحبين، فإذا هم ينظمون قطعاً من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل[٣]:

أيها العاشق المعذب صبراً فخطايا أخي الهوى مغفوره

زفرة في الهوى أحط لذنب من غزاة وحجة مبروره

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدي يحسن الشعر ونظمه، وله في الأغاني ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً، وروي له المرزباني مقطوعات متعددة في الحب من مثل قوله[٤]:

كئيب حزين واكف الدمع هامله تخونه من آجل البين عاجله

---

[١] مروج الذهب ٤٨/٤.

[٢] معجم الشعراء ص ٤٣١ وفوات الوفايتا ٣٧٦/٢.

[٣] معجم الشعراء ص ١٩١.

[٤] معجم اشعراء ص ٢٢٠.

جريح صدود قد أضر به الهوى ورق له عواده وعواذله

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يحتل أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر، وفي مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وقد تولى إبراهيم- كما مر بنا- ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التي كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوي عريب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته لكل منهما[١]، كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات، ومن قوله فيها[٢]:

زعموا أني أحب عريبا صدقوا والله حبا عجيباً

حل من قلبي هواها محلاً لم تدع فيه لخلق نصيباً

هي شمس والنساء ونجوم فإذا لاحظت أفلن غيوبا

وهو في هذه الأبيات يصرح بأنه لا يشرك معها جارية في حبه وهيامه، ولكن ويبدو أنه كان يشارك معها من حين إلى حين أخريات، كن يأسرنه بجمالهن وفتنتهن وما يزرعن في القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتاً، كانت من الجواري القيان، وفيها يقول[٣]:

نبت إذا سكتت كان السكوت لها زيناً وإن نقطت فالدر ينتثر

وإنما أقصدت قلبي بمقلتها ما كان سهم ولا قوس ولا وتر

وكان سعيد بن حميد يعمل في الدواوين، وأسندت إليه رياسة ديوان الإنشاء في عهد المستعين، واشتهر بتبادله الحب مع فضل الشاعرة، وسنعرض في ترجمتها لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله يشكو السهاد وطول الليل[٤]:

يا ليل بل يا أبد أنائم عنك غد

يا ليل لو تلقى الذي ألقى بها أو تجد

قصر من طولك أو ضعف منك الجلد

أشكو إلى ظالمة تشكو الذي لا تجد

---

[١] أغاني (طبعة الساسي) ١٨/١٧٥ ، ١٩/١١٤.

[٢] أغاني ١٩/١٢٤.

[٣] أغاني ١٩/١١٧ وأقصدت: جرحت .

[٤] المختار من شعر بشار ص ١٨.

وقف عليها ناظري وقف عليه السهد

وعرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجي شغفت قلبه حباً، فنظم فيها شعراً كثيراً، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها بحبه وعطفه وحناه ويكلف بها كلفاً شديداً، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفي شبابه، وإلى ذلك يشير بقوله[١]:

زرعت وشاجي بيننا في شبيبتي غراس الهوى فاعتم بالثمر العذب

وماتت قبله، فظل يبكيها بكاء مراً، جازعاً عليها جزعاً لم ير مثله، وظل يزور قبرها وهو ينوح عليها ويتفجع بمثل قوله[٢]:

يميناً بأني لو بليت بفقدها وبي نبض عرق للحياة وللنكس

لأوشكت قتل النفس عند فراقها ولكنها ماتت وقد ذهبت نفسي

وكثير من الجواري في العصر كن ينظمن الشعر ويحسن نظمه، وكن- كما مر بنا في غير هذا الموضع- يكتبن أبياتاً منه على طررهن وعصائبهن وجوانب ثيابهن، فيوقدن الحب في قلوب الرجال ويشعلنه إشعالاً. ونرى ابن المعتز يفرد لمجموعة منهن صحفاً في كتابه طبقات الشعراء المحدثين، ويذكر بينهن عريب وفضلاً الشاعرة، والخنساء جارية هشام المكفوف. ومن الجواري اللائي كن يحسن الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل، وكانت قد أدبت وثقفت، وتمرنت على قول الشعر حتى أحسنته، وكانت تلحنه وتغني به على العود. وكانت تحل من قلب المتوكل محلا رفيعاً، ويروي أنه غاضبها ذات يوم، ولم يلبث قلبه أن نازعه إليها، فاقترب من حجرتها، فإذا هي تضرب على عود وتغنى على ضربها مصورة لوعتها من خصامه ومغاضبته وأنها لا تطيق الصبر عن لقائه[٣]:

أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمني

حتى كأني أتيت معصية ليس لها توبة تخلصني

فمن شفيع لنا إلى ملك قد زارني في الكرى وصالحني

حتى إذا ما الصباح عادلنا عاد إلى هجره وقاطعني

---

[١] كتاب الديارات ص١١١.

[٢] الأغاني (طبعة الساسي) ٤٣/٨

[٣] مروج الذهب ٤٣/٤ والأغاني (طبعة الساسي) ١٣٤/١٩.

فصفق المتوكل طرباً، ودخل إليها، وتصالحا. ويروي أنه رأى ذات يوم جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه: "جعفراً"، فأعجبه ذلك وتمنى لو صور ذلك شاعر من شعرائه: البحتري أو على بن الجهم أو مروان بن أبي الجنوب، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها، وتغنت[١]:

وكاتبة في الخد بالمسك جعفرا ... بنفسي محط المسك من حيث أثرا

لئن أودعت خطا من المسك خدها ... لقد أودعت قلبي من الوجد أسطرا

فيا من لملوك يظل ملكيه ... مطيعاً له فيما أسر وأظهرا

وهي من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة. وكانت محبوبة وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرهن الرقيقة، وليس من ريب في أنهن عملن على أن يعبر الشعراء في الحب عن حس دقيق وذوق مرهف. ونعرض بالتفصيل ثلاثة: شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل في العصر، وهم خالد ابن يزيد الكاتب، ومحمد بن داود، وفضل.

## خالد[٢] بن يزيد الكاتب

كان أحد كتاب الجيش، وأصله من خراسان، وليس بين أيدينا عنه أخبار كثيرة، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات في الجيش الذي خرج بقيادة علي بن هشام أحمد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة "قم" الفارسية وفي الطريق بلغ علياً أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذه في ندمائه. ولما وزر الفضل بن خالد للمعتصم قربه منه، حتى إذا أخذنا المعتصم في بناء سامرا بادر خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة، ونقلها الفضل إلى المعتصم فسر بها، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم. وينظم فيه وفي المدينة أشعاراً أخرى ويغنى المغنون المعتصم بها، وينثر على خالد جوائزه. وظل قريباً منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات. ولا نقرأ له أشعاراً في مديح الخلفاء في العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، إذ يقال إنه توفى سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩. ويقول مترجموه إنه قصر نفسه على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه، ولا يعني بمديح ولا هجاء، ومع ذلك نجد له بعض الهجاء القليل في بعض منافسيه من الشعراء، غير أنه لم يبرز فيه فانصرف فيه، وقصر نفسه على الغزل ،ويقال إنه وسوس واختلط عقله في أواخر حياته.

---

(١) مروج الذهب ٤٢/٤.

(٢) أنظر في ترجمة خالد وأشعاره الأغاني (طبعة الساسي) ٣١/٢١ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٣٠٨/٨ والديارات (أنظر الفهرس) ومعجمالأدباء ٤٧/١١ والنجوم الزاهرة ٣٦/٣ وله ديوان مخطوط بالمكتبة العمومية بدمشق.

ويجمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز في الغزل أربعة أبيات، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلاً، ويقول ابن المعتز: شعره حسن جداً وليس لأحد من رقيق الغزل ماله، وينشد من غزله قوله:

وضع الدموع مواضع الحزن ... حي السهاد وميت الجفن

عبراته نطق بما ضمنت ... أحشاؤه ولسانه يكني

في كل جارحة له مقل ... تبكي على قلب له رهن

لم يدر إلا حين أسلمه ... قدر للحظة واحد الحسن

والأبيات فيها دقة في التفكير وفيها خيال بعيد، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب ومثله في الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكي على قلبه الذي رهنته منه صاحبته، وأيضاً تعبيره عن صاحبته بأنها واحدة الحسن، وكأنه كني حاول أن يأتي بأفكار مبتكرة، من مثل قوله:

كيف خانت عين الرقيب الرقيبا ... أخطأتني لما رأيت الحبيبا

رحمتني فساعدتني فقبلـ ... ـت بعيني مع الحبيب الرقيبا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء، فالرقيب قد رحمه وساعده، وقلب الشكوى المنتظرة شكراً، وإذا كان الشعراء ألموا بالليل ووصف استطالته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأ، ليل المحبين دائماً طويل لسهادهم المستمر يقول:

رقدت ولم ترث للساهر ... وليل المحب بلا آخر

ولم تدر بعد ذهاب الرقا ... د ما صنع الدمع بالناظر

وهو ليس سهاداً فحسب، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهي، وصاحبته بجانبه وةلا تدري ما يعاني من عذاب الحب المبرح، وهو يتجرع غصص حبه محتملاً مقاوماً، والصباح كأنما ضل طريقه، فعم الكون ليل لا آخر له، ومن قوله:

قد استعار الحسن من وجهه ... والغصن الناعم من قده

وقد تعاتبنا بأبصارنا ... فيما جناه الخلف من وعده

حتى تجارحنا بتكرارنا ... للحظ في قلبي وفي خده

فأدرك الثأر وأدركته ... وسرني بالصد عن صده

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قده وقوامه، وهما يتعاتبان عتاباً رقيقاً، ويكرران النظر، وكأنما يؤلم طرف خد صاحبته ويترك فيه أثراً من طول تكراره، أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله

من سهامه التي تجرحه في الصميم. وكأنما كل منهما ظرف من صاحبه بثأره، ولكن شتان ما بين الثأرين: ثأر يجرح الخدود وثأر يجرح القلوب. ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدت عن الصد وانصرفت عن الهجر. وكان يلم أحياناً ببعض الأديرة أو يفضي إلى تعاطي بعض كئوس الخمر، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة، وكان يمزج هذا الحديث يغزله على عادته، فالغزل دائماً مبتغاه من شعره على نحو ما نرى في قوله:

رأت منه عيني منظرين كما رأت — من البدر والشمس المضيئة بالأرض

عيشة حياتي بورد كأنه — خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وناولني كأساً كأن رضابها — دموعي لما صد عن مقلتي غمضي

وولي وفعل السكر في حركاته — من الراح فعل الريح بالغصن الغض

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين، وقد تلاصقت وسرى فيهم الخجل، نسوه به القدماء طويلا، وهذه الكأس التي ناولها صاحبته كأس المحبين التي طالما شربوا منها كئوسهم التي لا يعرف الناس أتمتلئ شراباً أم ناراً. وله:

إذا كنت في كلي بكلك مفرغاً — فأي مكان من مكانك ألطف

فمني إذا ما غبت في كل مفصل — من الشوق داع كلما غبت يهتف

فهما روحان في جسد، وهو يحس فراغاً لا حد له إذا غابت عنه، وكأن كل جزء فيه يفقد تمامه، فهو ماينى يهتف بها حتي يستكمل وجوده، فقد غاب نصفه وهو يتبعه، ويتبعه قلبه من ورائه، قلبه الممزق مثل مفاصله، ومثل كبده الجريح، يقول:

كبد شفها غليل التصابي — بين عتب وسخطة وعذاب

كل يوم تدمي بجرح من الشو — ق ونوع مجدد من عذاب

يا قسيم الجفون أسقمت جسمي — فاشفني كيف شئت، لابك مابي

فهو يصلي نيران العتاب والسخط، وكل يوم يتجدد ويتجدد عذابه، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا في جفونه وإنما في جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضناً. ومن أرق الدعاء قوله في آخر الأبيات: "لا بك ما بي". وتدور له في كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله:

كيف ترجي لذاذة الإغتماض لمريض من العيون المراض

وقوله:

ليت ما أصبح من رق ـة خديك بقلبك

وقوله:

وبكي العاذل من رحمتي فبكائي لبكا العاذل

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل أوضح الدلالة علي صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغية في رقة الغزل. وجعله ذلك مألفاً لكثير من معاصريه أمثال علي بن المعتصم. وكان كثيرون يدعونه إلي مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه علي المغنين والمغنيات، ليكتمل الأنس والطرب، ونحس دائماً أنه ظامئ إلي لقاء محبوبته، ويقال إنه فعلاً أحب جارية في مطالع حياته، ولم يسطع لقاءها وقد ظل ظامئاً إلي هذا اللقاء حتى مماته.

## محمد[١] بن داود الظاهري

أبوه داود بن خلف الأصفهاني مؤسس المذهب الظاهري في الفقه، أصله من الكوفة ودرس ببغداد، واعتنق مذهب الإمام الشافعي، ومضي يجتهد حتي استطاع أن يؤسس له في الفقه مذهباً مستقلاً عن المذاهب الأربعة: المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي. وقد أقامه علي رفض القياس والرأي والتقليد للأئمة المذكورين واشتق الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة، ولذلك سمي مذهبه باسم المذهب الظاهري. وعني بتربية ابنه محمد، وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآن، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات. ثم دفعه إلي التأدب علي ثعلب الإمام اللغوي والنحوي المشهور، وهو يروي في كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه. ولزم حلقة أبيه وتمثل مذهبه ولما توفي سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه، فخلفه علي رياسة المذهب، ومضي يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعي في عصره، وكانت حلقة تدريسه تغص بالطلاب، وله مصنفات مختلفة في المذهب الظاهري. ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذي عني نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول، والكتاب كله مائة باب جعلها في جزءين خص الأول منهما بالحب العذري العفيف، وهو يتضمن خمسين باباً في كل باب مائة بيت، وأهمها ما دار في تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه علي نعمه وقدرته والتحذير من سطوته. ويهمنا في حديثنا عن الغزل الجزء الأول، وهو في الأبواب الأولي منه يتحدث عن أسباب الهوي، ثم يتلوها بأحواله من الفراق والشوق ويخص الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء، وعادة يضع للباب عنواناً مسجوعاً من "من كثرت لحظاته دامت حسراته" و "ليس بلبيب من لم يصف ما به لطبيب" و "التذلل للحبيب من شيم الأديب". وهي عناوين غير مضبوطة، وبالمثل ما يليها من الأشعار، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطر لأن يضيف إلي البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتاً أخري حتي لا يكون مبتوراً. والأبيات أو قل الشواهد في الأبواب تمتد علي طول الزمن من العصر الجاهلي حتي عصره. وقد بدأ بتأليف الكتاب في حياة أبيه وهو لا يزال حدثاً. وفي ذلك يقول: "بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكتاب ونظر في أكثره". وكان فطناً ذكياً نافذ البصيرة كما كان شاعراً. ويروي أن شخصاً سأله في حلقته عن حد السكر متي هو؟ ومتي يكون الإنسان سكران؟ فأجابه: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم. وفي هذه الإجابة ما يدل علي أنه كان ظريفاً. ويروي أيضاً أن رجلاً جاء إلي حلقته فدفع إليه ورقة، فأخذها وتأملها طويلا، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية. وقلبها وكتب في ظهرها الإجابة،

---

[١] أنظر في حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٢٥٦/٥ ومروج الذهب للمسعودي ٢٠٥/٤ وابن خلكان والوافي بالوفيات للصفدي ٥٨/٣ ومرآة الحنان لليافعي ٢٢٨/٢ وطبقات الشافعية للسبكي في ترجمة ابن سريج ٢٣/٣ وما بعدها، وطبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببيروت.

فراجعوها. وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومي الشاعر المشهور، وإذا في الرقعة مكتوب:

يا بن داود يا فقيه العراق　　أفتنا في قواتل الأحداق

هل عليهن في الجروح قصاص　　أم مباح لها دم العشاق

وإذا الجواب:

كيف يفتيكم قتيل صريع　　بسهام الفراق الإشتياق

وقتيل التلاق أحسن حالاً　　عند داود من قتيل الفراق

ويقال إنه كان يهوي في من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلاني العطار وكان طاهراً في هواه، فهو إن صح كان يهوي نقياً، أو قل إنه كان تعلقاً أوشك أن يكون هوي أو ظنه الناس هوي. وكان ترجماناً للهوي العذري في عصره كما كان مؤلفاً فيه، إذ صنف في أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا، وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلي أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودي، من مثل قوله:

عن كبدي من خيفة البين لوعة　　يكاد لها قلبي أسي يتصدع

يخاف وقوع البين والشمل جامع　　فيبكي بعين دمعها متسرع

فلو كان مسروراً بما هو واقع　　كما هو محزون بما يتوقع

لكان سواء برءه وسقامه　　ولكن وشك البين أدهى وأوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التي تكاد تمزق قلبه حسرات. وهو يخاف البين قبل وقوعه، فيبكي بدموع غزار، فما باله والبين يوشك أن يقع ؟ إنه يمعن في البكاء ويمعن في الإلتياع ويمعن في الألم والعذاب، ومن قوله:

تمتع من حبيبك بالوداع　　إلى وقت السرور بالاجتماع

فكم جربت من وصل وهجر　　ومن حال ارتفاع واتضاع

وكم كأس أمر من المنايا　　شربت فلم يضق عنها ذراعي

ولم أر في الذي لاقيت شيئاً　　أمر من الفراق بلا وداع

تعالى الله كل مواصلات　　وإن طالت تؤول إلى انقطاع

وهو يدعو إلى ألا يشكو المحب من الفراق ولحظة الوداع التي طالما عصرت قلوب المحبين، ويقول إنها ليست آخر لحظة يلقى فيها الحبيب، فستأتي بعدها لحظات لقاء، وهكذا الحب أحوال

من وصل وفراق ولقاء وهجر. ويقول كم شرب من الحب كئوساً مرة أمر الموت، فتحملها صابراً. وليس أمر من الفراق بلا وداع ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد، فإن هذا عذاب لا يطاق، عذاب كأنه الجحيم. ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شيء الزوال والفناء. ومن تتمه ذلك عند الفقيه أن يرضي بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم، كأن يقول في بعض عزله:

أفوض أسباب إلى الله كلها وأقنع بالمقدور فيها وارتضي

فهو دائماً يسلم –في عذابه بالحب وآلامه فيه وما يصلى من هجر وبعد وفراق– بما أرادته له المقادير. وتشيع في شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال والحرام والتوبة، ويعلن غير مرة أن حبه عفيف نقى طاهر لا تشوبه أدنى شائبة، يقول:

لا تلزمني في رعي الهوى سرفاً وما أوفيه إلا دون ما يجب

في عفة نتحامى أن يلم بها سوء الظنون وأن تغتالها الريب

ويكثر في غزله من ذكر المنازل والديار والفيافي والقيعان والركبان والمطايا، وهو يتساءل والمنازل لا تجيب، فقد رحل الأحبة وخلفوا له وجداً ما مثله وجد، وعبثاً يخفيه فكل ما حوله يبصره، يقول:

يخفى هواه وما يخفى على أحد حتى على العيس والركبان والحادى

ويذيع شعره في بغداد ويغني فيه المغنون والمغنيات، وهو لا يدري من أمره شيئاً فقد كان منكباً دائماً على حلقات الدرس وعلى التصنيف والتأليف. ويساير ذات يوم القاضي محمد بن يوسف فيسمع جاريه تغني بقوله:

أشكو غليل فؤاد أنت متلفه شكوى عليل إلى إلف يعلله

سقمى تزيد على الأيام كثرته وأنت في عظم ما ألقى تقلله

الله حرم قتلى في الهوى سلفاً وأنت يا قاتلي ظلماً تحلله

ويلتفت إلى صاحبه قائلاً: كيف السبيل إلى ارتجاع مثل هذا الشعر الذي تلوكه أفواه المغنين والمغنيات، فيوئسه من رده قائلاً، هيهات سارت به الركبان ومن طريف ما يروي له:

فلا تطف نار الشوق بالشوق طالباً سلوا فإن الجمر يسعر بالجمر

ولم تمتد حياته طويلاً، فقد توفى سنة ٢٩٧ وهو في الثانية والأربعين من عمره، ويقال إنه لما مات جلس ابن سريج مناظره المذكور آنفاً في مجلسه وبكى وجلس على التراب، وقال: ما آسى إلا على لسان أكله التراب من ابن داود. وحزن عليه تلاميذه حزناً شديداً. ويقال إن نفطويه جزع عليه جزعاً عظيماً، ولم يجلس في حلقته للناس يحاضرهم سنة كاملة.

## فضل[١]

كانت أمها من مولدات اليمامة، وكانت هي من مولدات البصرة، نشأت في دار رجل من قبيلة عبد القيس أدبها وثقفها ثم باعها، ووقعت لرجل من النخاسين في الكرخ ببغداد يقال له حسنويه، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرخجي، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة. ولم يكن بين الجواري في زمانها أفصح منها ولا أشعر، ويقول فيها بعض النخاسين: كانت في نهاية الجمال والكمال. ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت: كذلك زعم من باعني واشتراني، فضحك، وقال لها: أنشدينا شيئاً من شعرك، فأنشدته تمدحه:

استقبل الملك إمام الهدى ... عام ثلاث وثلاثينا

إنا لنرجو يما إمام الهدى ... أن تملك الناس ثمانينا

لا قدس الله امرءًا لم يقل ... عند دعائي لك آمينا

فاستحسن الأبيات، وأمر لها بجائزة وأمر عريب أن تغنيه بها، فغنت وطرب طرباً شديداً. وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يلقونها عليها، فتجيزها في سرعة شديدة وكان المتوكل نفسه يلقى عليها أحياناً بعض الأبيات فتسرع في أجازتها ببديهتها الحاضرة، من ذلك قول بعض الشعراء:

تعلمت أسباب الرضا خوف عتبها ... وعلمها حبي لها كيف تغضب

ولم يكد يلفظ بالبيت حتى قالت:

تصد وأدنو بالمودة جاهداً ... وتبعد عني بالوصال وأقرب

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصت به معاصرتها الخنساء، ولكن جمهور أشعارها كان في الغزل، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها:

علم الجمال تركتني ... في الحب أشهر من علم

ونصبتني يا منيتي ... غرض المظنة والتهم

فارقتني بعد الدز ... وفصرت عندي كالحلم

ما كان ضرك لو وصلت ... فخف عن قلبي الألم

---

[١] أنظر في فضل وأخبارها وأشعارها الأغاني (طبعة الساسي) ٢١/١١٤ ، ٢/١٧ وفوات الوفيات للكتبي وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢٦ والنجوم الزهراء ٣/٢٨ وزهر الآداب للحصري ٤/١٦٥ .

وهي تقول لصاحبها إنك وصلتني وشهرتني بحبك ثم هجرتني وأنزلتني هذه المنزلة المخزية من القطيعة، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال، وهي تود لو ظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله، فخرجت من آلامها المبرحة. وأكثر غزلها في معشوقها سعيد بن حميد رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين، وله فيها بدوره غزل كثير، وبينهما محاولات ومكاتبات شعرية طريفة، من ذلك أنه عتب عليها يوماً أنها لا تقبل عليه في مجلسها ولا تذكره باسمه في غزلها، فكتب إليه:

وعيشك لو صرحت باسمك في الهوى ... لأقصرت عن أشياء في الهزل والجد

ولكنني أبدي لهذا مودتي ... وذاك وأخلو فيك بالبث والوجد

فكتب إليها سعيد:

تنامين عن ليلى وأسهره وحدي ... وأنهى جفوني أن تبثك ما عندي

فإن كانت لا تدرين ما قد فعلته ... بنا فانظري ماذا على قاتل العمد

وكان لا يقل عنها كفاً ولا غراماً، وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويعودان إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة، وكانت لاتي الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة، ومما كتبته له في إحدى الرقاع:

الصبر ينقص والسقام يزيد ... والدار دانية وأنت بعيد

أشكوك أم أشكو إليك فإنه ... لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حرياً بصاحب الأغاني أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التي اتصلت بينهما، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تعد من طرائف الشعر العباسي. ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جواري القيان وملأت قلبه فتوناً، فكتبت إليه غاضبة ساخطة:

يا عالي السن سئ الأدب ... شبت وأنت الغلام في الأدب

ويحك إن القيان كالشراك ... المنصوب بين الغرور والعطب

لا يتصدين للفقير ولا ... يتبعن إلا مواضع الذهب

فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة، حتى لا يعود إلى التفكير في تلك الجارية أبداً. ويقال إنها كانت في الغاية والنهاية من التشيع، فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه

السلام. وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفس عن نفسها بمثل قولها:

إن الزمان بذحل كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأسهانا[1]

مالي وللدهر قد أصبحت همته مالي وللدهر، ما للدهر، لا كانا

والبيتان رائعان، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعري غزير، واختلف في زمن وفاتها، فقيل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها: ما رسائلي المدونة عند الناس إلا من إنشائها تجلة لها ولأدبها وملكتها الشعرية.

---

[1] ذحل: ثأر

٢

## شعراء اللهو والمجون

ظل كثيرون من الشعراء ينغمسون في اللهو والمجون كما أنغمس أسلافهم في العصر الماضي، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل في الأخلاق، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة، وساعد على ذلك اختلال في الموازين وفساد في القيم شاعا في حياة الدولة وفي حياة الناس. وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة، وكان الكرخ مليئاً بالحانات وبدور النخاسين، والشعراء المجان يغدون ويروحون ليل نهار، وبعض الجواري لم يكن يعرفن حشمة ولا وقاراً إنما كن يعرفن اللهو والابتذال. وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوباً والموصل شمالاً، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائماً لا في الأعياد المسيحية فحسب، بل طوال العام، فهم يلمون بها ويتناولون الخمر منها، وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متصلة. وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحاب الخلاعة والمجون في أسوأ صورهما، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلاً شاذاً بالغلمان، وصمة ظلت في هذا العصر كما كانت في العصر الماضي، وكثير من هذا الغزل كان ينظم في أثناء السكر وشرب الخمر، للضحك والفكاهة، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصور الفساد الخلقي في أبشع صوره. وحقاً لا نجد خليفة تورط في حب غلام، ولكن أيضاً كان كثيرون منهم يعكفون على الملاهي والملذات، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان في صورة ندماء ومضحكين، وأكثرهم كانوا مجاناً محترفين. وفي كل مكان نلتقي بهذه الجماعات أو العصابات، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة في الديارات وتارة في دور النخاسين أو في الحانات أوفي بيوتهم، ومن أهمهم جماعة أو عصابة أبي هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بين مكرم وأبي علي البصير وأبي العيناء، وفيهم يقول المرزباني: كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر في الظرف والمجون[١]، ومنهم جماعة أبي السفاح الأنصاري وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا في صفة الخمر، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا[٢]. وكان لشيوع مجالس الخمر حينئذ أثرها في ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم، ومما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمسامحة في الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا واطراح ما مضى وإسقاط التكليف وسر العيب وحفظ

---

[١] معجم الشعراء ص٣٩٨.

[٢] طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٣٩ .

الغيب. ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير، وكان ظريفاً لسناً سريع الجواب، واتخذه المتوكل في ندمائه، وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة، وقد يبقى فيها أياماً لا يفيق من سكره، وله في ديربا شهرا، وكان بين سامراء وبغداد، قوله[١]:

نزلنا دير باشهرا ... على قسيسه ظهرا

وسقانا وروانا ... من الصافية العذرا

وطاب الوقت في الدير ... فرابطنا به عشرا

ونلنا كل ما نهواه ... من لذاتنا جهرا

ومن كبار الشياطين في العصر مصعب الوراق، وكان من أشد المجان تهتكاً وأكثرهم خلاعة وتطرحاً في الحانات والديارات، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات الموصل، وفيه يقول[٢]:

عمرت بقاع دير الزعفران ... بفتيان غطارفة هجان[٣]

بكل فتى يحن إلى التصابي ... ويهوى شرب عاتقه الدنان

بكل فتى يميل إلى الملاهي ... وأصوات المثالث والمثانى[٤]

ظللنا نعمل الكاسات فيه ... على روض كنقش الخسرواني

وأغصان تميل بها ثمار ... قريبات من الجاني دواني

وممن كانوا يتورطون حينئذ في الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومي، إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه، وله كثير من المعاني الدقيقة في الخمر وغير الخمر، وكأنما كان يتأثر بأستاذة، وفيها يقول[٥]:

مشمولة كشعاع الشمس في قدح ... مثل السراب يرى من رقة شبحا

إذا تعاطيتها لم تدر من لطف ... راحا بلا قدح عاطتك أم قدحاً

---

[١] الديارات للشابشي ص٨٠ .

[٢] الديارات ص١٩٢ .

[٣] غاطرفة هجان: سادة كرام .

[٤] المثالث والمثاني: من أوتار العود .

[٥] المختار من شعر بشار ص١٢٧ وانظر الديارات ص٩٣ .

وكثيراً ما كان يلم بدير الخوات، وهو دير كبير شمالي سامراء وسط البساتين والكروم، وكانت تسكنه نساء مترهبات، وكان من منازل القصف ومواطن اللهو، وذكره كثيراً في أشعاره. ومثله دير العذاري وكان قريباً من بغداد، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذاري، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد. فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه، ولو مقطوعة يصور فيها ما امتد حوله الدير من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله[١]:

ورياض كأنهن برود | كل يوم لهن صبغ جديد
وكأن الشقيق فيها عشيق | وكأن البهار صب عميد[٢]
وكأن الثمار والورق الخضر | ثياب من تحتهن نهود
فاسقنيها راحاً تريح من الهم | وتبدي سرورنا وتعيد
وانتهز فرصة اللذاذات في دير | العذارى فعلها لا تعود

وكان كثيرون لا يلغون في المجون ولا يغرقون في اللذات، وإنما يلمون بالخمر من حين إلى حين، وقد يكون في حياتهم ما دفعهم إلى ذلك، إما سخط شديد على الحياة السياسية، وإما شك واستهانة بكل شيء، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق. وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحياناً أو قل بعبارة أدق على وصفها، إذ ربما وصفوها مجاراة للشعراء في عصرهم، على نحو ما نجد عند أبي أبى العباس الناشئ إذ يقول[٣]:

ومدامة يخفى النهار لنورها | وتذل أكناف الدجى لضيائها
صبت فأحدق نورها بزجاجها | فكأنها جعلت إناء إنائها
وتكاد إن مزجت لرقة لونها | تمتاز عند مزاجها من مائها
صفراء تضحى الشمس إن قيست بها | في ضوئها كالليل في أضوائها
وإذ تصفحت الهواء رأيته | كدر الأديمة عند حسن صفائها
لا شيء أعجب من تولد برئها | من سقمها ودوائها من دائها

---

(١) الديارات ص١٠٩ .

(٢) الشقيق: ورد أحمر . والبهار: زهر أصفر ، والكناية واصحة .

(٣) زهر الآداب ١٤٩/٢ .

وهي خمرية بدعية لعب فيها خيال الناشئ بفكرة ضوء الخمر، فهي تارة تحيل الشمس ظلاماً، وتارة ترى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجي. وهي متناهية في الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يمزج بها، وهي أيضاً متناهية في الصفاء حتى ليرى الجو الصافي كدراً بالقياس إليها، وهي داء ودواء وسقام وشفاء. ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون في العصر، وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البرجمي وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع.

## الحسين[1] بن الضحاك

من كبار الخلعاء المجان، ولد بالبصرة ونشأ بها، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين، وربما قبل عصره، فقد عاش دهراً طويلاً، وكان ظريفاً. فاتخذه الأمين نديماً له، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه. وقد جزع جزعاً شديداً حين توفى الأمين، ورثاه مراثي كبيرة، وكان مما قال فيه باكياً متفجعاً.

هلا بقيت لسد فاقتنا ... فينا وكان لغيرك التلف

قد كان فيك لمن مضى خلف ... فاليوم أعوز بعدك الخلف

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده في حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكى بها بغداد حين ضربها طاهراً بالمجانيق، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف، فلما ذكر له في الشعر قال: لا حاجة لي به ولا يرى وجهي إلا على قارعة الطريق أي في مواكبه العامة. وظل لا يقرب القصر طوال خلافة المأمون، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقربه منه، فمضى يمدحه وينال جوائزه، وقد أقطعه كما أقطع رجال حاشيته داراً في سامراء، واتخذه الواثق نديماً له، وله فيه مدائح كثيرة، وخلفه المتوكل فسلكه في ندمائه، وكذلك صنع ابنه المنتصر، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه، ومن قوله في تهنئته له بالخلافة:

هنتك أمير المؤمنين خلافة ... جمعت بها أهواء أمة أحمد

وأعجب المنتصر بالقصيدة، فقال له: إن في بقائك بهاء للملك، ولحق بعده عصر المستعين، وفيه توفى سنة ٢٥١ للهجرة.

---

[1] انظر في ترجمة الحسين بن الضحاك وأشعاره ابن المعتز ص٢٦٨ وتاريخ بغداد ٥٤/٨ والأغاني (طبع دار الكتب) ١٤٣/٧ ومعجم الأدباء وابن خلكان ومرآة الجنان ١٥٦/٢ وشذرات الذهب ١٢٣/٢ وأشعار الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة ببيروت) .

وكان يعرف باسم الخليع لكثرة مجونه وعكوفه على الخمر، حتى أصبح اسمه مقرونا باسم أبي نواس أكبر ماجن في العصر السابق، وهو مثله فارسي الأصل، وكان يصحبه في شبابه، ويبدو أنه تمثل أشعاره تمثلاً نادراً وخاصة أشعار الخمر والمجون، حتى اختلط الأمر على القدماء فنسبوا كثيراً من أشعاره إلى أبي نواس، وزعم نفر منهم أن أبا نواس كان يحاكيه في بعض أشعاره، والصحيح أن الحسين هو الذي كان يحاكي أستاذه وأستاذ الخمر والمجون في العربية عامة. ويقول ابن المعتز إنه كان أنقى من أبى نواس شعراً وأقل تخليطاً منه، وهي ملاحظة صحيحة غاية الصحة، فإن أبا نواس كان يختلط بأبناء الشعب البغدادي من المجان وغيرهم في الحانات بالكرخ وغير الكرخ وفي الأديرة، وكان لا يرتفع بلغته وألفاظه عنهم، بل كان يدنو منهم دنواٍ شديداً. وكان ينظم كثيراً من خمرياته في أثناء سكره، فدبا في أشعاره تخليط كما لاحظ ابن المعتز، فهو تارة يرتفع حين ينظم في مجلس الأمين أو في مجلس بعض الوزراء والنابهين، وتارة يسف حين ينظم في مجالس العامة، وخاصة حين يخاطب غلمان الحانات وكانوا أخلاطاً من الفرس ممن لا يحسنون العربية الفصيحة، أما الحسين فكان في جمهور حياته يعيش في قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم، فكان في جمهور حياته يعيش في قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم، فكان يعنى أشد العناية بلغته وألفاظه، ولا يكتفى فيها بالفصاحة بل يطلب أيضاً الرصانة والجزالة حيناً، وحيناً العذوبة والنعومة وما يلائم الأذواق الرفيعة في المجتمع، لذلك قل التخليط عنده كما يلاحظ ابن المعتز، بل كاد ينعدم انعداماً، ولذلك أيضاً شاع في أشعاره النقاء والصفاء إذ كان يطلب فيها دائماً أن تلذ الأسماع والأفئدة. وظاهرة ثانية يختلف فيها عن أستاذ المجون والخمر في عصره هي شيء من الحشمة المصطنعة في مجونه، فهو لا يذيع فيه ما يذيعه أبو نواس من الفحش، لأنه كان يعيش في أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترف إنما منكراً، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئاً من الحشمة ولا كان يخفى شيئاً من آثامه. وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبي نواس مجوناً وشغفاً بالخمر، فقد كان مثله مفتوناً بها فتنة شديدة، وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها، ومن طريف ما نظمه في دير سابر بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله:

وعواتق باشرت بين حدائق ... ففضضتهن وقد حسن صحاحا[1]

أتبعت وخزة تلك وخزة هذه ... حتى شربت دماءهن جراحا

أبرزتهن من الخدور حواسرا ... وتركت صوت حريمهن مباحا

---

[1] العواتق: زقاق الخمر .

وهو يصور فتنته بزقاق الخمر المتمثلة التي لم يمسسها أحد قبله، وقد ضحكت الطبيعة في دير سابر من حوله، وهو يفتح الزقاق ويشرب من دمائها أرطالاً. وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ،وله في دير سرجس بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة، يقول فيها:

أخوى حي على الصبوح صباحا ... هبا ولا تعدا النديم رواحا

مهما أقام على الصبوح مساعد ... وعلى الغبوق فلن أريد براحا[١]

عودا لعادتنا صبيحة أمسنا ... فالعود أحمد مغتدى ومراحا

هل تعذران بدير سرجس صاحباً ... بالصحو أو تريان ذاك جناحا

إني أعيذكما بألفة بيننا ... أن تشربا بقرى الفرات قراحا[٢]

عجت قواقزنا وقدس قسنا ... هزجاً وأصخبنا الدجاج صياحا[٣]

وهو يتلطف إلى صاحبيه في آخر الليل ويدعوهما أن يتناولا معه الصبوح كما تناولاه بالأمس، ويعذراه ولا يريا في ذلك جناحاً ولا إثماً، ويستحلفهما بما بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النمير، بل يشربا معه صبوحه المسكر المحبب إلى نفسه. وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه "يسرا" إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزله، وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه "شفيعاً" إلى العبث به، وكان وضئ الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل، وواضح أنه غزل كان يراد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبى عيسى. وله في الغزل عامة شعر كثير من مثل قوله:

وصف البدر حسن وجهك حتى ... خلت أنى- وما أراك- أراكا

وإذا ما تنفس النرجس الغض ... توهمته نسيم شذاكا

خدع للمنى تعللني فيك ... بإشراق ذا وبهجة ذاكا

لأدومن يا حبيبي على الود ... لهذا وذاك إذ حكياكا

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة، وهي عذوبة تشيع في كثير من أشعاره الغزلية والخمرية، وهي طبيعة لشاعر كان يعيش في قصور الخلفاء ومجالسهم، ويسمع في كل ليلة

---

[١] الصبوح: شرب الصباح ، والغبوق: شرب المساء .

[٢] الماء القراح: الماء الصافي .

[٣] القواقز: القداح . وقدس القس: رتل بعض التراتيل .

أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل لون، مما جعل أذنه الموسيقية ترهف أرهافاً شديداً، فإذا كثير من شعره يتحول ألحاناً وأنغاماً خالصة على شاكلة قوله:

| | |
|---|---|
| عالم بحبيه | مطرق من التيه |
| يوسف الجمال وفر | عون في تعديه |
| وهو غير مكترث | للذي ألاقيه |
| لا وحق ما أنا من | عطفه أرجيه |
| ما الحياة نافعة | لي على تأبيه |
| النعيم يشغله | والجمال يطغيه |

والقطعة من وزن عباسي حديث هو وزن المقتضب، وهي تطير عن الفم بخفة. ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره في شعره عند الملاءمة بين جرس الكلمات، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان، فكان يفزع إلى مجزوءاتها كثيراً إرضاء لآذان السامعين، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات في شعره الفرص كي يجهروا بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية.

## أبو الشبل[1] البرجمي

اسمه عاصم بن وهب، ولد بالكوفة ونشأ. وتأدب بالبصرة، يقول أبو الفرج: "قدم إلى سامراء في أيام المتوكل ومدحه، وكان طباً نادراً، كثير الغزل، ماجناً فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث، ونادمه وخص به فأثرى" ثم يذكر بعض مديحه للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه. ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفاً خفيف الروح، ويقص ابن المعتز بعض نوادره، مما يدل على أنه كان فكه المحضر. وكان خليعاً مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه في المجون ويتهالك على اللذات، ويطلبها في الحانات وفي الديارات، ويقول من ترجموا له إنه كان عاكفاً على الشراب لا يفارقه، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر مأخذاً شديداً، ويقولون إنه كان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو، لا يغبها ولا يتأخر عنها، بل دائماً في حانة أو في دير أو في بستان أو متنزه وقد شرب وأغرق في الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه، بل لم يعد يستطيع حراكاً. وكان كثير الاختلاف إلى دير أشموني بقرية قطر بل شمالي بغداد وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصاحب البطالة والمجون. وكان عيد هذا

---

[1] أنظر في أبي الشبل وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٨٠ والأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ١٩٣/١٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٢٣ والديارات للشابشتي ص٥٠ وما بعدها .

الدير في اليوم الثالث من أكتوبر، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل الطرب واللهو، يخرجون إليه جماعات، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة، ومن يركب الخيل المطهمة، وينزلون في أكناف القرية وحاناتها وديرها الكبير ضاربين خيامهم وفساطيطهم، وكل قد أعد ما استطاع لقصفه ولهوه، والقيان تعزف عليهم، وآلات الطرب تسمع في كل مكان، والناس يطربون ويشربون وقد يرقصون طرباً واستحساناً لما يسمعون. وطبيعي أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل بمناظر هذا العيد، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنى بمثل قوله:

شهدت مواطن اللذات طرا ... وجبت بقاعها بحراً وبراً

فلم أر مثل أشموني محلا ... ألذ لحضاريه ولا أسرا

به جيشان من خيل وسفن ... أناخا في ذراه واستقرا

كأنهما زحوف وغى ولكن ... إلى اللذات ماكرا وفرا

سلاحهما القوافز والقنانى ... وأكواس تدور هلم جرا[1]

وضربهما المثالث والمثانى ... إذا ما الضرب في الحرب استحرا

وكان مثل الحسين وعامة مجان عصره يكثر من الغزل، وكان يستهتر فيه أحياناً ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفاً في شعره، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مشيعاً فيه غير قليل من الفحش. وكان ينظم بجانبه غزلا آخر لا يسف فيه هذا الإسفاف، بل يبقى فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة، على شاكلة قوله:

بأبى ريم رمى قلـ ... بى بألحاظ مراض[2]

وحمى عينى أن تلـ ... تذ طيب الإغتماض

كلما رمت انباساطاً ... كف بسطى بأنقباض

أو تعالى أملى فيـ ... ـه رماه بانخفاض

فمتى ينتصف المظـ ... ـلوم والظالم قاضى

والأبيات خفيفة، ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحاك في عذوبة نغمة وخفه روحة وحرارة عاطفته. وكان الحسين أعف منه لساناً إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه، وقد عمر عمراً

---

[1] الفوافز: القدح كما مر . والأكواس: الكئوس .

[2] الريم: الظبى خالص البياض .

طويلاً حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيئا وبلغ من الكبر عتياً، وكان طبيعياً أن ينصرف عنه حينئذ الجواري، وفي ذلك يقول:

عذيري من جوارى الحي إذ يرغبن عن وصلى

رأين الشيب قد ألبـ سني أبهة الكهل

فأعرضن وقد كن إذا قيل أبو شبل

تساعين قرقعن الـ كوى بالأعين النجل[١]

ومر بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له، وله فيها هجاء مسف إسفافاً شديداً، وهو في هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة. وكان قد اشترى كبشاً لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمنه، وأفلت يوماً منه على قنديل كان يسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت، فكسر القنديل وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى، ونظم قصيدة في رثاء قنديله يقول فيها:

يا عين بكى لفقد مسرجة كانت عمود الضياء والنور

صينية الصين حين أبدعها مصور الحسن بالتصاوير

مسرجتي كم كشفت من ظلم جليت ظلماءها بتنوير

إن كان أودى بك الزمان فقد أبقيت منك الحديث في الدور

ومضى يصور كيف انتقم للمسرجة، فذبح الكبش ومزقه بالمدى وألقى به في القدور وكيف أن السنانير والحدأة والغربان والكلاب طعمت من لحمة وعظامه، وكان ذلك عرساً لها جميعاً بدون مزامير ومغنين. وتلك عاقبة البغى، مصرعه وخيم. ودخل داره بعض أصدقائه ورأى أن يعبث به، ولفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل، بأخذه ولم يعلمه بما صنع، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه، فأنشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس، وفيه يقول:

فكر تعترى وحزن طويل وسقيم أنحى عليه النحول

ليس يبكى رسماً ولا طللاً ح كما تندب الربى والطاول[٢]

إنما حزنه على ثلث كا ن لحاجاته فغالته غول[٣]

---

[١] الكوى: الخروق في الأبواب والنوافذ .

[٢] مح: عفا ودرس .

[٣] غالته: أهلكته .

كان للسر والأمانة والكتـ مان إن باح بالحديث الرسول

وضحك صديقه طويلاً، واعترف له بأخذه، ورده عليه. وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع، يسرف الخلاعة والمجون، بل في الاستهتار والتهتك، وهو مع ذلك صاحب نوادر، لا نوادر يحكيها فحسب، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره.

## عبد الله[1] بن العباس بن الفضل الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين، نشئ في الحلية والترف والنعيم، وقد عنى أبوه بتعليمه وتثقيفه حتى أحسن الشعر، وكان يقوله على الطبيعة مرسلاً نفسه على سجيتها، لا يتكلف فيه ولا يتعمل. ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم، ويقول: كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنياً محسناً جيد الصنعة. ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمته رقية كانت تتقن الغناء، تسمى عساليج، شغفت قلبه حبا، فكان يلزمها بعلة الغناء، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنه من الأصوات والأدوار، حتى أقررن له بالحذق. وصار يلازم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلي، وكاد لا يترك لهم صوتاً دون أن يأخذه. وكان جوارى الحارث بن بسخنر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجواري بها ما ليس عندهن من غناء. وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء، بل أن يصبح ماهراً فيه، وترتفع شهرته في إحسانه إلى آذان الخلفاء، فيطلبونه لسماع أغانيه، وكان أول من طلبه الواثق، وله فيه أصوات مدحه بها، وغناه فيها فملأه طرباً، من ذلك ما يروى من أن الواثق عوفى من مرض ألم به فطلبه مع طائفة من المغنين، فلما صادر قريباً من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنياً بيتين قالهما في طريقه إليه على هذا النمط:

اسلم وعمرك الإله لأمة بك أصبحت قهرت ذوى الإلحاد

لو تستطيع وقتك كل أذية بالنفس والأموال والأولاد

وكان الواثق يغمره بجوائزه وصلاته، وغمره من بعده المتوكل بالأموال، ويقص صاحب الأغاني من ذلك بعض أخبار ،وله فيه أيضاً مدائح قصيرة كان يغنيه بها فيهتز طرباً، وفيه يقول:

أكرم الله الإمام المرتضى وأطال الله فينا عمره

سره الله وأبقاه لنا ألف عام وكفانا الفجره

---

[1] أنظر في عبد الله وحياته وأشعاره الأغاني (طبعة الساسي) ١٢١/١٧ وتاريخ بغداد ٣٦/١٠ والديارات ص٦٣ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص١١٥ .

وكان يغنى الخليفتين والمنتصر من بعدهما في غزل من أشعار السابقين وفي كثير من غزله الذي نظمه في عساليج وفي غيرها من الجواري اللائي فتن قلمه وفي مقدمتهن مصابيح جارية الأحدب المقين وكانت تغني في كثير من شعره. وهي جارية نصارنية هام بها قلبه هياماً شديداً، ويقال إنه كان يلزم بيع النصارى في أعيادهم من أجلها شغفاً بها، وفيها يقول:

تتثنى بحسن جيد غزال وصليب مفضض آبنوس

كم رأيت الصليب في الجيد منها كهلال مكلل بشموس

وتردد في غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل دير سرجس ودير قوطا القريب من بغداد، وكان ينزل فيهما أياماً مع بعض رفاقه، يشربون يوقصفون ويمجنون، وله يصور ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صحبه في دير قوطا، إذ يقول:

يا دير قوطا لقد هيجت لي طربا أزاح عن قلبي الأحزان والكربا

كم ليلة فيك واصلت السرور بها لما وصلت لها الأدوار والنخبا

في فتية بذلوا في لقصف ما ملكوا وأنفقوا في التصابى المال والنشبا[1]

وهي يكثر من الحديث عن صاحبته النصرانية وعن جواري البيع والأديرة، وكأنما كان قلبه يتبعهن جمعياً ويتمنى لو استطاع أن يجني معهن زهرات الحب، أو لو أتيح له ذلك من حين إلى حين، ومن قوله في إحدى جوارى الدير السالف:

وشادن ما رأت عينى له شبها في الناس لا عجماً منهم ولا عربا

إذا بدا مقبلا ناديت واطربا وإن مضى معرضاً ناديت: واحربا

ويصرح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقة، لما كان يخامره فيها من سكرين: سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن هناك من العذارى الفاتنات. وله يتحدث عن خمر قرية من قراهن تسمى كركين وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحي الذي يقع في يوم الأحد قبل عيد الفصح:

ألا أصبحاني يوم الشعانين من قهوة عتقت بكركين

عند أناس قلبي بهم كلف وإن تولوا ديناً سوى ديني

---

[1] النشب: المال والعقار .

ومن الحق أنه لم يكن يبقي لنفسه شيئاً من الحشمة في مجونه، وهو من هذ الناحية شبيه بأبي الشبل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله بعاشر الخلفاء والأمراء، وكأن هذه العشرة كانت شيئاً سطحياً، وهو نفسه كان حفيد وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية. وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من الخمر، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصبوح كل يوم من دهره ما عدا أيام الجمع وشهر رمضان، فهو نهاره سكران، وكذلك كان ليله. ومثله يسف ويهبط إلى الدنيات، لذلك نعجب إذا رأينا الشابشتي يقول عنه: "كان صاحب غزل ومجون كثير التطرح في الديارات والحانات والاتباع لأهل اللهو والخلاعة". ومع ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويروي أن ابن الزيات وزير الواثق وكان أديباً باعراً في الشعر والنثر قال له: انشدني شيئاً من شعرك، فقال إنما أعبث ببعض الأبيات، ولست بمكان من ينشكد شعره، فقال له: أتقول هذا وأنت القائل:

يا شادناً رام إذ مـ ـر في الشعانين قتلى

تقول لي كيف أصبحـ ـت كيف يصبح مثلى

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً، ولو لم تقل غير البيت الأخير لكفاك ولكنت شاعراً مجيداً. وروى له الأغاني أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعساليج ومصابيح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنية. ومن الأصوات التي طرب لها الواثق طرباً شديداً حين غناه بها قوله:

بأبي زور أتاني بالغلس قمت إجلالاً له حتى جلس

فتعانقنا جميعاً ساعة كادت الأرواح فيها تختلس

قلت يا سؤلي ويا بدر الدجى في ظلام الليل ما خفت العسس

قال: قد خفت ولكن الهوى آخذ بالروح منى والنفس

زارني يخطر في مشيته حوله من نور خديه قبس

والقطعة بديعة في خواطرها وفي تصويرها للهيام بالمعشوق، وللمعشوق نفسه وجماله الساحر الوضئ، وأيضاً في صياغتها وموسيقاها. وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسقى، وهو شيء طبيعي لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب، وكان الجواري والمغنون من حوله يغنون فيه، فكان يضغه في نسق موسيقي، نشترك فيه آذانه الداخلية: أذن الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقى، شركة تصفية من كل الأدران، فإذا ألفاظ الشعر متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة، فلا عوق ولا انحراف لا في لفظ بل لا عوج ولا انحراف في حرف ولا في حركة، إذ يعم الانسجام والإحكام. وهذا الأثر الموسيقى في الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر

في الأوزان إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل لبعضها كل ما يريد من خفه ورشاقة موسيقية.

٣

## شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجه من اللهو والمجون إنما كانت مقصور على البيئات المترفة التي أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء، ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلاً من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تتغمس في الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجد فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ في المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائماً تدوي في آذانهم كلمات الوعاظ والنساك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير في مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب في الآخرة. وكان هؤلاء النساك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات في المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفي كل مكان نجد بينهم قصاصاً يقصون على الناس من سير الأنبياء والأمم الدائرة ما يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيماناً صادقاً وورعاً مخلصاً، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملاً أو منصباً رفضه في إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس اللين والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا في جانب ما أمل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش في الثغور واعظاً وقاصاً ومذكراً بما أعد الله لمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما اهو معروف عن أبي العباس الطبري المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلباً إذا قص، ويروى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصف من جلالة الله وعظمته وملكوته فخر مغشياً عليه من الموت[1]. ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والواعظ جميعاً كانوا من هذا الطراز، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد، لا في الطبقة العامة وحدها، بل أيضاً في الطبقات الأرستقراطية، على الأقل من حين إلى حين، كأن نرى واعظاً يقف بين يدى هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعياً إلى الإقبال على ما عند الله ونبذ متاع الحياة الزائل، أو مخوفاً منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعيم المقيم. وطبيعي –والزهد قوت العامة في حين كان المجون قوت الخاصة– أن يتعلق بالنظم فيه

---

[1] طبقات الشافعية للسبكي ٣/٥٩ .

أكثر الشعراء، حتى شعراء المجون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبي نواس في العصر الماضي فقد كان الشعر الذي تتطلبه العامة والذي تجد فيه غذاء مشاعرها وعواطفها، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة. وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئاً غلبهم التأثر حتى لو كانوا في مجلس شراب على نحو ما يروى عن المتوكل فإن الحماني نقيب العلويين في الكوفة الذي ترجمنا له في الفصل الماضي دخل عليه وهو في مجلس شراب، فأنشده[١]:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... فادعوا حفرا يابئس مانزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل

وأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طالما عمروا دورا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين ونتقلوا

ومضى في موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بلت دموعه لحيته وبكى من حضره، وأمر برفع الشراب، وكأنما ثابت إلى رشده. وممن كان يكثر في العصر من الوعظ في شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهوردة، ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب الثنوية، أما الابن فكان صحيح الدين ورعاً وولي القضاء برهة، يروى له موعظة حائية يستهلها بقوله[٢]:

أراعك شيب في السواد يلوح ... يبث بأسباب البلا وينوح

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت، وقد بدأ يدق بقوة، فعما قليل ستزهق الروح. ويذكر المرزباني شاعراً معاصراً للمعتز من المعتزلة، ويقول إن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدأين المعروفين في الاعتزال، ثم يذكر له أشعاراً[٣] كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى، وتخويف من الموت وما بعده. وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا في الزهد، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة، وفي ديوان ابن المعتز والصنوبري وابن الرومي زهد كثير، ولعل أحداً لم

---

[١] مروج الذهب ٤/١١ .

[٢] طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٦٤ .

[٣] معجم الشعراء ص٤٠٨ .

يرسم صورة الزاهد في هذا العصر كما رسمها ابن الرومي في قصدية بديعة من قصادئه، نتكفي منها بالأبيات التالية[١]:

بات يدعو الواحد الصمدا — في ظلام الليل منفردا

في حشاه من مخالفته — حرقات تلذع الكبدا

كلما مر الوعيد به — سح دمع العين فاطردا

قائل: يا منتهى أملي — نجني مما أخاف غدا

وخطيئاتي التي سلفت — لست أحصى بعضها عدداً

ويح عيني ساء ما نظرت — ويح قلبي ساء ما اعتقدا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقي بها منذ أواخر القرن الثاني الهجري موجة صوفية، تعد وليدة الموجة السابقة، ومر بنا في الفصل الثاني حديث مفصل عن نشأتها وتطوريها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلاً خالصاً. ونمضي في العصر ويلقانا ذو النون المصري الذي يعد الأب الحقيقي للتصوف، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقاً بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التي تقوم على الفكر والمنطق، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة، فهي معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدسي، ولها أحوال ومقامات، ومن قوله يخاطب ربه[٢]:

أموت وما ماتت إليك صبابتي — ولا قضيت من صدق حبك أوطاري

تحمل قلبي فيك ما لا أبثه — وإن طال سقمي فيك أو طال إضراري

ويخلفه أبو يزيد البساطمي فيذيع فكرة الفناء في الذات الإلهية، كما مر بنا في غير هذا الموضع، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقمعها لشهواتها وإنمحاء إرادتها في الإرادة الإلهية. ونمضي حتى نلتقى بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبر عن فنائه في الذات الربانية بمثل قوله[٣]:

أفنيتني عن جميعي — فكيف أرعى المحلا

---

[١] ديوان ابن الرومي (نشر كامل كيلاني) ص٧٩ وانظر ٤٩ .

[٢] طبقات الصوفية للسلمي ص٢٧ .

[٣] السلمى ص١٥٦ .

وهو الذي عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين في التصوف، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة في مواعظه. وكان يعاصره أبو الحسن النوري، وكان شاعراً، ويكثر في أشعاره من التعبير عن الحب الإلهي وفكرة الفناء في الذات العلية بمثل قوله[١]:

تأمل بعين الحق إن كنت ناظراً ... إلى صفة فيها بدائع فاطر

ولا تعط حظ النفس منها لما بها ... وكن ناظراً بالحق قدرة قدر

ويلقانا أبو الحسين سحنون الخصواص، وله شعر كثير في المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق، وكذلك في فكرة الفناء المطلق في الله بحيث لا يصبح في المتصوف أي فضل لإحساس أي شيء من حوله، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هي رغبة الانمحاء في الذات الربانية التي تمتلك عليه كل شيء من أمره، يقول[٢]:

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم ... وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح

فلما دعا قلبي هواك أجابه ... فلست أراه عن فنائك يبرح

رميت ببين منك إن كنت كاذباً ... وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح

وإن كل شيء في البلاد بأسرها ... إذا غبت عن عيني بعيني يملح

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو علي الروذ بارري، وكان يقول: المريد الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له، يريد أنه هو الذي تفنى إرادته في الإرادة الإلهية، بحيث لا يحس المريد أو المتصوف شيئاً في الكون سوى الله، وكان شاعراً ومن شعره في فكرة الفناء وغياب روحه عن حس أي شي من أشياء الكون[٣]:

روحي إليك بكلها قد أجمعت ... لو أن فيها هلكها ما أقلعت

تبكى عليك بكلها عن كلها ... حتى يقال من البكاء تقطعت

والبيتان يحملان فكرة الفناء وفكرة المحبة التي تخلص النفس لربها. والفكرتان تتداخلان في التصوف، فالمحبة التي تنكر الذات تنتهي إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حس وكل خاطرة إلا الذوبان في الذات العلية. ونعرض لاثنين من كبار المتصوفية بشيء من التفصيل وهما الحلاج والشبلي.

---

[١] السلمى ص١٥٥ .

[٢] السلمى ص١٨٩ .

[٣] السلمي ص٣٦٧ .

## الحلاج[١]

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاج ويقال إن أباه هو الذي كان حلاجاً يحلج الصوف أو القطن أما جده فكان مجوسياً أسلم ودخل في الدين الحنيف، وقد نشأ في مدينة تستر، فلزم سهلا التستري الصوفي، الذي أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم، والذي أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور نفوس المؤمنين، وكأن الله يتجلى فيهم منذ البدء. وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة، وبالغ فيها وأسرف إسرافاً شديداً، ووقع في نفسه أنه أعلى من الجنيد في عالم التصوف وأرفع، وأنه رقى مرتبة الكمال التي طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها. وفارقة متجهاً إلى أداة فريضة الحج وأقام بمكة سنة، ثم أخذ يطوف في البلدان وتعرف في طوافه على أبي بكر الرازي أشهر أطباء العصر وتخرج عليه في الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء، وتعمق في طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعبذة والنيرنجيات. وفي عودته التحق بالقرامطة وتمثل عنهم عقيدتهم. وأدى فريضة الحج للمرة الثانية، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه في أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصفي نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التي يبتغيها إذ يشتمل في نفسه حقيقة الصورة الإلهية التي سواها الله فيه، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء. وجادله أستاذه الجنيد في هذه الفكرة طويلاً، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله، وأخذ يكثر من الشطحات ومن الكلام الموهم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل "أنا الله"، ويقال إن الشبلي قال له: بل أنت بالله، ومثل "أنا الحق"، ويقال إن الجنيد قال له: بل أنت بالحق. ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبذات والمخلوطات٩ الكيمائية التي تعلمها على الرازي والنيرنجيات التي تعلمها في الهند، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثماني سنوات، كان يسمح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء. وحاولت "شغب" أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاة المذاهب الأربعة لمحاكمته، وانعقدت جلسات المحاكمة، وتقدم الشهود، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة، ولكنه

---

[١] راجع في ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره السلمي ٣٠٨ وتاريخ مسكوبه ٧٦/١ والفهرست ص٢٨٣ والفخري في الآداب السلطانية ص١٩٢ وتاريخ بغداد ١١٢/٨ والطبري ١٤٧/١٠ وابن الأثير وتكملة تاريخ الطبري ص٢٣ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٢٠٢/٣ وشذرات الذهب ٢٥٣/٢ وكتاب أخبار الحلاج (طبع باريس) وكتاب التصوف الإسلامي لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) وكتابه الطواسين نشر ماسينيون بباريس وكتاب ماسينيون عنه .

أنكر ذلك، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أداؤها شرعاً. ولعل هذه التهمة هي التي دفعت الفقهاء إلى الفتوى بصلبه، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين. ويبدو أنه لم يكن يحل المتصوف الذي بلغ مثل منزلته بالمجاهدات الشاقة من فريضة الحج وحدها، بل كان يحله من جميع الفرائض رافعاً عنه التكليف إذ أصبح مساوياً للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سراً للقرامطة وأن تكون هذه الدعوى من الأسباب في سجنه وصلبه. وقد نفذ الحكم عليه في الثاني عشر من ذي القعدة لسنة ٣٠٩ فضرب ألف سوط ثم قطعت يداه ورجلاه، وحز رأسه ونصب يومين على الجسر، ثم حمل إلى خراسان فطيف به هناك، أما جثته فأحرقت وألقى برمادها في دجلة. وهرب مريدوه إلى خراسان وأخذوا يحيون بها ذكراه، وظلت خالدة على مر الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس في عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته في الخالق وخلقه فقد كان يظهر أنه يؤمن في الخالق بتنزيهه كما يبدو ذلك في كلمات كثيرة له مثل "إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصور في الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا نعت بالشرح والوصف" وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بالمخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت في نفسه الصورة الإلهية، فالله يرى فيه، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شيء، وهذا هو معنى قوله: أنا الله وأنا الحق، فهو صورة له، وليس هو بعينه، وكأنما الأثر القديم: "إن الله خلق آدم على صورته"، هو الذي جعله ينطق بالكلمتين السابقتين، وهو لا يريد ظاهرهما، إنما يريد أن الله يتجلى فيه، كما يتجلى في خلقه ومن هنا أثر عنه أنه كان يقول: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه. وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدها أيضاً من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي، وبذلك يظهر الله بصورته في الإنسان، ونراه يصرح بذلك إذ يقول في الطواسين:

سبحان من أظهر ناسوته — سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا لخلقه ظاهراً — في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه — كلحظة الحاجب بالحاجب

وهو يشير في البيت الأول إلى آدم وفي البيتين الثاني والثالث إلى ذريته، فهم جميعاً ناسوت يظهر أسراراً اللاهوت، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحين على عيسى، ومن هناك قال عن نفسه كما قدمنا: أنا الحق أو أنا الله، ومثل ذلك في عبارات طنانة، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنهما لا تمتزجان في مثل قوله: "اللهم إنك المتجلي من كل

جهة المتخلى من كل جهة، بقح قيامك بحقي وبحق قيامي بحقك، وقيامك بحقي يخالف قيامي بحقك، فإن قيامي بحقك ناسوتية وقيامك بحقي لاهوتية"، وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجتان امتزاجاً تاماً، يقو مخاطباً ربه:

مزجت روحك في روحي كما　　تمزج الخمرة بالماء الزلال

فإذا مسك شيء مسنى　　فإذا أنت أنا في كل حال

وكأنه يشاهد الله في ذاته، أو كأنما حل اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون في المسيح، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحل فيه حتى لتشع أنوار في كل كيانه، ويصور ذلك بمثل قوله:

حويت بكلي كل كلك يا قدسى　　تكاشفني حتى كأنك في نفسي

وقوله:

أنت بين الشغاف والقلب تجري　　مثل جرى الدموع من أجفاني

وتحل الضمير جوف فؤادي　　كحلول الأرواح في الأبدان

وهكذا تجري على لسانه كلمة الحلول، وكل ذلك يؤكد أنه تثقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بينه واستقر في نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهد جهاداً عنيفاً في الاتصال بربه ومحبته محبة عليه الشغاف من قلبه، حتى ليحس في قوة بالاتحاد معه، مما جعله يقول:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا　　نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته　　وإذا أبصرته أبصرتنا

وقد رفع الرسول صلى الله عليه وسلم مراتب فوق جميع الخلق، ويبدو أنه أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يعد مبدأ العالم، إذ هو النور الذي تفجرت من ينابيعه جميع أنواع النبوات، بل هو مبدأ الوجود كله ونبعه الفياض السابق لكل موجود، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود.

وتكثر عنده كلمات الوجود ولهيبه المشتغل في القلب والسكر ونشوته التي تفقده وعيه والفناء الذي تفني فيه جميع حواسه، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية، وفي ذلك يقول:

إذا بلغ الصب الكمال من الهوى　　وغاب عن المذكور في سطوة الذكر

فشاهد حقا حين يشهده الهوى　　بأن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفي عنده أن يجاهد المتصوف ويعاني ويلقى الأمرين في حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله. وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف. وبذلك يتضح أنه هو الذي أعد للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء. وظل هذا الانفصام قائماً بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتق فتقه القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري. ويبدي ويعيد في تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال، كقوله في بعض مناجاته للذات العلية: "أنت تعلم ولا تعلم، وترى ولا ترى ... وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك أستحقر الراسيات، وأستخف الأرضين والسموات، وبحقك لو بعت مني الجنة بلمحة من وقتي أو بطرفة من أحر أنفاسي لما اشتريتها، ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتها في مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عني". ومن قوله في وصف مجاهدته:

لقد ركبت على التغرير واعجبا ممن يريد النجا في المسلك الخطر

كأنني بين أمواج تقلبني مقلب بين إصعاد ومنحدر

الحزن في مهجتي والنار في كبدي والدمع يشهد لي فاستشهدوا بصري

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إنه هو الذي وضع في التصوف الإسلامي فكرة أن الأديان جميعاً تؤدي إلى الله، وفقط تختلف شعائرها، ولكنها تتحد في الغاية، وبذلك تخطي حدود الإسلام إلى حدود الديانات جميعاً، مما جعله يقول:

ألا أبلغ أحبائي بأني ركبت البحر وأنكسر السفينه

ففي دين الصليب يكون موتي ولا البطحا أريد ولا المدينه

وهو لا يريد أن يقول إنه أنسلخ عن الإسلام وأصبح لا يريد الموت في بطحاء مكة ولا في المدينة المقدسة، وإنما يريد أن يقول إنه يرى الله في المسد وفي الدير وفي كل معبد من معابد الديانات، فالديانات جميعاً عنده سواء. وفي الحق أن أشعاره وأقواله تحمل كثيراً من الإيهام والغموض حتى لتصبح أحياناً- كما في كتابه الطواسين- ألغازاً خالصة.

## الشبلي[١]

كنيته أبو بكر، واسمه دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، وقيل جعفر بن دلف، وقيل غير ذلك، وأصل أهله من أشر وسنة جنوبي طشقند الحالية، فهو تركي العرق. رقى أبوه في قصر الخلافة حتى أصبح حاجب الحجاب، وكان خاله يلي إمرة الإسكندرية بمصر، ويبدو أنه استعان به في عمله لعدة سنوات إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصرياً وأنه ورد بغداد من مصر. وقد تركت مصر والإسكندرية فيه بعض طوابعهما، إذ نراه يعتنق مذهب المالكية الذي كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحرية القريبة منها. وعاد إلى العراق، فقربه منه الموفق –ولي عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه في خلافته– واتخذه حاجباً له، ثم ولاه دنباوند بالقرب من الري ويحدث منه ما يجعل أمير الري التابع له يصرفه عن عمله. وكان ذلك نعمة كبرى عليه، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النساج تلميذ السرى السقطي، وأبى حمزة البغدادي وعلى يديه تاب وأناب. ولم يلبث أن لحق بالجنيد أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرق أمواله في الفقراء، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة، ويذكرون أنه قال له في أول سلوكه الطريق: "لقد حدقوني أن عند جوهرة العلم الرباني، فإما أن تمنحيتها، وإما أن تبيعنيها؟ فقال له الجنيد: لا أستطيع أن أبيعها فما عند ثمنها، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها، ألق بنفسك غير هياب في عباب هذا المحيط مثلما فعلت، فعلك –إن صبرت– أن تظفر بها". ومضى الشبلي يجاهد ويضنى في جهاده ويشقى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج، وكان سزوره في سجنه، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذي صورناه آنفاً وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشريعة متابعاً أستاذه الجنيد في أتباع الكتاب والسنة، بل في التفقه ورواية الحديث النبوي، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أي أثر. ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعياً، وقد عرفنا آنفاً أنه كان مالكي المذهب، وهو لذلك يسلك مع أهل السنة. ويقال إنه لما قتل الحلاج خشي على نفسه لتردده عليه، فتظاهر بالخبل لئلا يمتحن، وأدخل المارستان، ثم خرج منه، وتفرغ للوعظ، فكان ينعقد له مجلس أيام

---

[١] أنظر في الشبلي وحياته وأشعاره السلمي ص٣٤٠ وتاريخ بغداد ٣٨٩/١٤ وابن خلكان ونشوار المحاضرة للتنوخي ١٧٢ والديباج المذهب لابن فرحون ص١١٦ وصفه الصفوة ١٦١/٢ والأنساب للسمعاني الورقة ٣٢٩ وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ١٢٧/٢ وحلية الأولياء لأبي نعيم ٣٦٧/١٠ وتلبيس إبليس لابن الجوازي ٣٤٧ وشذرات الذهب ٣٣٨/٢ وورروضات الجنات ص١٦٠ وديوانه (طبع المجمع العلمي العراقي) بتحقيق كامل مصطفى الشيبي وما ذكر فيه وفي تقديمه من مراجع .

الجمع، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر، وذاع صيته، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فج. وما زال يحتل ببغداد هذه المكانة العلية حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عاماً.

وكان الشبلي في تصوفه دائماً سنياً، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة، ويقال إنه سئل من أسعد أصحابك بصحبتك ؟ فقال: أعظمهم لحرمات الله وألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله وأعرفهم بقضائه وأكثيرهم تعظيماً لما عظم من حرمة عباده. وكان يقول إن الله موجود عند النظارين في صنعه مفقود عند الناظرين في ذاته، وسأله سائل: هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال: كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال:

فمن كان في طول الهوى ذاق سلوة ... فإنى من ليلى لها غير ذائق

وأكثر شيء نلته من نوالها ... أماني لم تصدق كلمحة بارق

فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلاً عن الحلول والاتحاد. وكان ينكر كل ما قيل، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلي الله في عبيده ومخلوقاته، فالله واجب الوجود وخالق العالم شيء والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شيء آخر، وهو يخاطب ولكن لا يرى ولا يشاهد، يقول:

وخاطبت موجداً بغير تكلم ... ولاحظت معلوماً بغير عيان

وكان يقول: "تعززت به وما افترقنا وكيف تفترق ولم يجر علينا حال الجمع أبداً". وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات، ويبدئ ويعيد في الحديث عن حبه، ومن قوله: "أدخلت المارستان كذا وكذا مرة، وأسقيت الدواء كذا وكذا مرة، فلم أزده إلا جنوناً"، وكثيراً ما كان ينشد قوله:

جرى حبك في قلبي ... كري الماء في العود

وقوله:

هذه دارهم وأنت محب ... ما بقاء الدموع في الآماق

ويطيل الحديث عن عذابه في حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار، حتى في العيد، فالناس فيه يفرحون ويعدون الراح والريحان وآلات الطرب، أما هو فيفضى إلى حزن شديد ونوح وتعديد، حتى لكأنما يحمل تحت ثيابه قبراً، فهو دائم البكاء دائم النواح، يقول:

قبور الورى تحت التراب وللهوى ... رجال لهم تحت الثياب قبور

وعندي دموع لو بكيت ببعضها ... لفاضت بحور بعدهن بحور

وكان يؤمن بالفناء في الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد، ولكن لم يكن يفني فيه عن نفسه الواعية، فتصوفه دائماً تصوف صحو لا تصوف غيب، وإن بدا في كلامه أحياناً أن فناءه إنما يكون في حال غيبه من مثل قوله وقد سئل: متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب: إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس وأضمحل الإحساس"، وذكر عنه أنه كان يقول: "هذا مجنون بني عامر كان إذا سئل عن ليلى يقول: أنا ليلى، فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقي بمشهد ليلى ويغيبه عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى". ولكن ينبغي ألا نظن من مثل هذا القول أنه يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاج، إنما يريد الإحساس بالفناء في الذات العلية، ومن طريق ماله من ذلك قوله:

تسرمد وقتي فيك فهو مسرمد[1] وأفنيتني عني فعدت محدداً

وكلي بكل الكل وصل محقق حقائق حق في دوام تخلدا

وقوله:

تغنى العود فاشتقنا إلى الأحباب إذ غنى

وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوذات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر، وسأله سائل: هل شاهد الله أحد بحقيقته ؟ فقال: الحقيقة بعيدة، ولكن ظنون وأماني وحسبان.

---

[1] السرمد: الدائم ، وتسرمد: خلد .

٤

# شعراء الطرد والصيد

مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الخلفاء والوزراء وعلية القوم شغفوا بالصيد والطرد حينذاك وأن الشعراء وفي مقدمتهم أبو نواس نظموا طرديات كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبي نواس نحو خمسين طردية أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناؤهم وكثير من الناس في هذا العصر يولعون بالصيد، وممن كان يولع به من الخلفاء ولعاً شديداً المتوكل، إذ كان يولع بالفهود والصيد بها كما كان يولع بالشباك. ولعل خليفة في العصر لم يشغف بالصيد كما شغف المعتضد ومر بنا في الفصل الثاني أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدم لها وحده وفي ذلك يقول له بعض معاصريه[١]:

يا صائد الأسد إن صيدكها ... لجامع خلتين من رشد

فلذة تجتني ومنفعة[٢] ... للسالكين السبيل والقعد()

ويذكر الصابي أنه كان ينفق يومياً سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازياريين والفهادين والكلابين[٣]. وورث ابنه المكتفي عنه هذه الهواية، فكان يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد في مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوي الوجاهة انتشاراً واسعاً، مما أهل لازدهار شعر الطرد في العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طردية بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها في بحور وأوزان مختلفة غير مكتفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكاً بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا الاتساع بها، بحيث تنظم في أي وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضارياً من ضواري الصيد إلا وصوفه ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب والفهود والبزاة والشواهين والصقور والعقبان، ونعتوا الصيد من حمر الوحش وأتنه وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وكذلك من الأرانب والثعالب والذئاب والآساد والطير والإوز، وألموا بالآته من النبل والسهام والنشاب والفخاخ والشباك والحبال المسماة بالأوهاق التي تجعل في أطرافها أنشوطة وترمى على الحيوان فتمسك بعنقه، والجلاهق وهو بندق مدور من طين يرمى به. وكان لهذا النشاط الواسع في الصيد وما يتصل به من العشر أثر في

---

[١] المصايد والمطارد لكشاجم ص١٧٣ .

[٢] القعد: جمع قاعد .

[٣] كتاب الوزراء ص١١ وما بعدها .

أن أخذت تؤلف كتب مختلفة في البيزرة وفي المصادي والمطارد، تفصل القول في الصيد وآلاته وضواريه وجوارحه. وقد نظمت حينئذ طرديات كثيرة، لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصى شعراءها لكثرتهم المغرطة، ونكتفي بالوقوف عند إعلامهم، وأول من نقف عنده على بن الجهم، وكان قد خرج يوماً مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق لهما في مرج للزعفران كثير من الطير والوحش، فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة والصقور والشواهين والكلاب، وفي ذلك يقول[١]:

وطئنا رياض الزعفران وأمسكت ... علينا البزاة البيض حمر الدرارج[٢]

ولم تحمها الأدغال منا وإنما ... أبحنا حماها بالكلاب النوابج[٣]

بمستروحات سابحات بطونها ... على الأرض أمثال السهام الزوالج[٤]

ومستشرفات بالهوادي كأنها ... وما عقفت منها رءوس الصوالج[٥]

ومن دالعات ألسنا فأكنها ... لحي من رجال خاضعين كواسج[٦]

فلينا بها الغيطان فليا كأنها ... أنامل إحدى الغانيات الحوالج[٧]

قرنا بزاة بالصقور وحومت ... شواهيننا من بعد صيد الزمامج[٨]

وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة. فمنقار الصقر كأنه صولجان، والكلاب حين تدلع ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لحى مرسلة على الذقون، وقد فحصت المرج البزاة والكلاب فحصاً دقيقاً حتى لكأنها أنامل دقيقة لسيدة تفلي القطن وتخلص الحب منه، فلا تبقي حبة مختبئة، بل كل الحب يستخلص، تستخلصه أنامل مرهفة. ومر بنا في الفصل الرابع تصوير البحتري لصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه في فلاة موحشة، وهما لوحتان رائعتان. ولابن الرومي غير قصيدة في الطرد والصيد، ونكتفي من طردياته بالقطعة التالية التي

---

[١] ديوان علي بن الجهم ص ١٢٠ .

[٢] الدرارج: جمع دراج وهو طير ملون الريش .

[٣] النوابج: النوابج .

[٤] مستروحات: تشم آثار الصيد . سابحات: مسرعات . الزوالج: التي تنزلق بسرعة .

[٥] الهوادي: الأعناق . عقفت: تموجت . الصوالج: جمع صولجان .

[٦] دالمات: مخرجات . الكواسج: جمع كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .

[٧] فلينا: فحصنا . الحوالج: اللائي يخلصن البذور من القطن .

[٨] الزمامج: جمع زمج: طير جارح أصغر من العقاب .

يصور فيها صيد صحابه للطير، وقد تقلدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البندق الذي يرمي به، وأشرعوا أقواسهم مسددين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر، يقول[١]:

وجدت قسى القوم في الطير جدها ... فظلت سجودا للرماة وركعا

طرائح من بيض وسود نواصع ... تخال أديم الأرض منهن أبقعا[٢]

فكم ظاعن منهن مزمع رحلة ... قصرنا نواه دون ما كان أزمعا[٣]

وكم قادم منهن مرتاد منزل ... أناخ به منا منيخ فجعجعا[٤]

هناك تغدو الطير ترتاد مصرعا ... وحسبائنها المكذوب ترتاد مرتعا

مباح لراميها الرمايا كأنما ... دعاها له داعي المنايا فأسمعا

لها عولة أولى بها ما تصيبه ... وأجدر بالإعوال من كان موجعاً

وما ذاك إلا زجرها لبناتها ... مخافة أن يذهبن في الجو ضيعا

وظل صاحب ناعمين ببؤسها ... وظلت على حوض المنية شرعا[٥]ً

ويبث ابن الرومي في وصفه حيوية خافقة، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راكعة، منها ما هبط إلى الأرض جثة هامدة، ومنها ما هو في سبيله إلى الهبوط، وهي مطروحة في الأرض أبيضها وأسودها، وكأنما أصبحت الأرض أديماً مخططاً، وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته، لقد كان يريد المرتع الخصب فإذا هون يجد المصرع الذي لم يكن له على بال، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعي الموت فأسمع وأصمى، والطير تعول غير متنبهة للرمى والرماة، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق في الجو، على حين تترامى على حياض الموت، بؤس ما بعده بؤس والصائدون ناعمون نعيماً ما بعده نعيم. وقد عرضنا في غير هذا الموضع بعض طرديات لابن المعتز، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات في العصر. ويذكر مترجموه أنه صنف كتاباً في جوارح الصيد وضواريه، ولا يكاد ضار أو جارح يفلت منه في شعره أو قل في طردياته، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بزاته وصقوره، ومنها

---

[١] الديوان ص٣٠٠ .

[٢] الأبقع: ما به سواد وبياض .

[٣] يريد بالنوى وجهته في الأرتحال . مزمع: عازم .

[٤] الجعجعة: صوت البعير ورغاؤه عند إناخته .

[٥] شرعاً: واردة الماء .

ما يصف شباكه وبندقه، ودائماً تجاري الكلاب وراء الظباء والأرانب حتى تصديها وقلما أفلتت منها، ومن قوله في كلبة ماهرة في الصيد[١]:

قد اغتدى والليل كالغراب — داجي القناع حالك الخضاب
بكلبه تاهت على الكلاب — تفوت سبقاً لحظة المرتاب
تناسب مثل الأرقم المنساب — كأنما تنظر من شهاب

بمقلة وقف على الصواب

فهو يخرج بكلبته وقت السحر، والليل لا يزال في دجاه وحلوكته، تصحبه كلبة تياهة على الكلاب بسرعتها حتى لتسبق لحظة من وقعت في نفسه الريبة، فهو ينظر خلسة وفي سرعة يريد أن يتحقق من صحة ريبة، وهو تناسب زاحفة كأنها أفعى، مسرعة لا تلوى، ناظرة لا بعين لماحة، وإنما بشهاب قبس، مقلة لا تخطئ الصيد، بل دائماً تصيب وتصيد. ومن قوله في وصف باز من بزاته[٢]:

ذو مقلة تهتك أستار الحجب — كأنها في الرأس مسمار ذهب
يعلو الشمال كالأمير المنتصب — أمكنه الجود فأعطى ووهب
ذو منسر مثل السنان المختضب — وذنب كالذيل ريان القصب[٣]
كأن فوق ساقه إذا انتصب — من حلل الكتان راناً ذا هدب[٤]

وتشبيه مقلة البازي الصفراء بسمار الذهب تشبيه بديع، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرق عطاياه ويهب ما يصيد، ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهي بريشه، وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهدابه، وله في باز آخر[٥]:

فارس كف ماثل كالإسوار — ذو جؤجو مثل الرخام المرمار[٦]

---

[١] الديوان وأشعار أولاده الخلفاء ص ٢٠٩ .
[٢] أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص٢٠٩ . والمصايد والمطارد الكشاجم ص٦٧ .
[٣] المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها .
[٤] رانا: ثوباً .
[٥] الديوان وديوان المعانى ٢/١٤٠ .
[٦] الجؤجؤ: الصدر . المرمار: الناعم . الإسوار: الحاذق في الرمي .

أو مصحف منمنم ذي أسطار ومقلة صفراء مثل الدينار

ترفع جفناً مثل حرف الزنار ومخلب كمثل عطف المسمار

وهو فارس كف لأنه يحمل على الكف عادة، ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور، أما مقلته فصفراء مثل الدينار، وأما جفنه فكحرف الزنار الذي يضعه النصارى في أوساطهم تمييزاً لهم، وأما المخلب فكعطفة المسمار. وله يصف فهدة[١]:

ولا صيد إلا بوثابة تطير على أربع كالعذب[٢]

فإن أطلقت من قلاداتها وطار الغبار وجد الطلب

فزوبعة من بنات الرياح تريك على الأرض شيئاً عجب

تضم الطريد إلى نحرها كضم المحبة من لا يحب

فأرجلها كالخيوط من خفتها، وحين تطلق من قلائدها ويجد طلبها لطرائدها ويعلوها الغبار لسرعة عدوها تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح، مما يملؤك عجباً، وإذا هي قد صادت الطريد وضمته إلى نحرها وصدرها لا ضم حنان ولكن ضم عدوان، كضم المحبة من لا يحبها. وهو تصوير رائع. والصنوبري طرديات مختلفة، منها قوله في باز[٣]:

ذو منسر أقنى ورسغ كز ومخلب لم يعد إشفا[٤] الخرز

مسربل مثل حبيك القز أو مثل جزع اليمن الأرزى[٥]

لما لززنا الطير بعد اللز بأسفل القاع وأعلى النشز[٦]

آب لنا بالقبج والإوز من جبل صلد ومرج نز[٧]

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التي ينقض بها على الطير انقضاضاً فلا تستطيع منه خلاصاً، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجزع أو الخرز اليماني الذي تغني به

---

[١] المصايد والمطارد ص١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص١٢١ .

[٢] العذب: خيوط ترفع بها الموازين .

[٣] ديوان الصنوبري ص١٣٣ .

[٤] إشفا: مخرز .

[٥] حبيك: محبوك . القز: الحرير . والجزع اليماني: خرز . ارزي: أبيض كالأرز .

[٦] النشز: المرتفعات .

[٧] القبج: الحجل . نز: به بعض المياه .

أمرؤ القيس، والطير مبثوثة في القيعان وعلى المرتفعات وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز. ومن قوله في الطرد ووصف كلابه وما صادت من الوحش[١]:

| | |
|---|---|
| يا روضة من حلل | ما خاطها خياط |
| الوحش في أرجائها | قبائل أخلاط |
| غاديتها ولم يقم | أعلامها الغطاط [٢] |
| بأكلب لو لم تطر | أطارها النشاط |
| فجئن والطل على | آذانها أقراط |
| انبسطت كالشهب لا | يعجزها انبساط |
| وطفقت والوحش في | مجالها بساط |
| صرعى تشق قمصها | عنها ولا تخلط |

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حلل الأزهار والأنوار، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القطا وغيره من الطير مرسال عليها كلابه المسرعة التي تكاد تطير طيراناً، وغير آبهة ببرودة الطقس وما قرط به آذانها من الندى، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزقه تمزيقاً لا يمكن رتقه. وكما يعرض لصيد البر يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة، وفي ذلك يقول[٣]:

| | |
|---|---|
| أفضل ما أعددته من العدد | وما حوى صحبي به غنى الأبد |
| بنات قين حاز في الحذق الأمد | على مقادير مخاليب الصرد[٤] |
| لها رءوس في أعاليها أود | كمثل أنياب الأفاعي وأحد[٥] |
| عجنا بها من حيث ما عاج أحد | في ظل صفصاف علينا قد برد[٦] |

---

[١] الديوان ص٢٨٧ .

[٢] الغطاط: القطا .

[٣] الديوان ص٤٧٥ .

[٤] القين: الحداد صانعها . الصرد: طائر ضخم الرأس والمنقار وهو من الجوارح .

[٥] أود: عوج إذ تشبه حرف الراء .

[٦] عجناً: عرجنا وانعطفنا .

شاطئ نهر لابس درع زبد ولم تزل ترسل طورا وتمد

ثم بعثنا ألف عين في جسد فجئننا يمثلهن في العدد

ألف من الحيتان بيض كالبرد

وواضح أنه صور الصنانير والصيد ثم الشبكة وما صور أفاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة. ولعل من الخير أن نكتفي بهذا العرض عند أعلام الشعراء، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طردياته في العصر هو أبو العباس الناشئ فقد كان مولعاً بالطرد والصيد، وله طرديات كثيرة.

## أبو العباس[1] الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير، من أهل الأنبار وفيها ولد ونشأ، ثم تركها إلى بغداد، واستقر بها طويلاً، وفيها تلقن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم، وكان ذكياً ذكاء حاداً، وصرف ذكاءه في مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجي، إذ ألف كتابا ينقض به منطق أرسطو وكتاباً ثانياً ينقض به آراء الخليل ابن أحمد في العروض ومثل لقواعده بغير أمثلته. وحاول أن ينقض علل النحويين. ونظم قصيدة طويلة في فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت في روى واحد وقافية واحدة لم تصلنا، وربما كانت منها الأبيات التي أنشدها الحصري له في موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية. وكان شيعياً، وربما شيعيته هي التي جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفى بها سنة ٢٩٣ للهجرة.

وله كتاب في تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالماً فقط بل كان أيضاً ناقداً، ولعل هذا الكتاب هو الذي جعل أبا حيان التوحيدي يعجب به وبنقده للشعر إذ يقول: "ما أصبت أحداً تكلم في نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم، وإن كلامه ليزيد على كلام قدامه وغيره، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتفال عجيب"، وينقل أبو حيان في تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له، فمن ذلك حديثه عن دواعي الشعر وبواعثه، وهو يجري على هذا النمط: "أول الشعر إنما يكون بكاء على دمن، أو تأسفاً على زمن، أو نزوعاً لفراق، أو تلوعاً لاشتياق، أو تطلعاً لتلاق، أو إعذاراً إلى سفيه، أو تغمداً لهفوة، أو تنصلاً من زلة، أو تحضيضاً على أخذ بثأر، أو تحريضاً على طلب أوتار، أو تعديداً للمكارم، أو تعظيماً لشريف مقام، أو

---

[1] أنظر في الناشئ وحياته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص٤١٧ وتاريخ بغداد ٩٢/١٠ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ١٥٨/٣ وشذرات الذهب ٢١٤/٢ والبصائر والذخائر لأبي حيان ١١٧/٢ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩ ومقالات الإسلاميين ص١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر الآداب ١٧٧/١ ، ٥٠/٣ ، والمصايد والمطارد لكشاجم (أنظر الفهرس) والعمدة لابن رشيق ٧/١ والديارات ص٢٦ والفهرست ص٢٥٥ وديوان المعانى ٢٥٤/١ و ٢٢٨/٢ .

عتاباً على طوية أو متاباً من مقارفة ذنب، أو تعهداً لمعاهد أحباب، أو تحسراً على مشاهد أطراب، أو ضرباً لأمثال سائرة، أو قرعاً لقوارع زاجرة، أو نظماً لحكم بالغة، أو تزهيداً في حقير عاجل، أو ترغيباً في جليل آجل، أو حفظاً لقديم نسب أو تدويناً لبارع أدب". والقطعة تلم في دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصري قطعة في وصفه لشعره يقول فيها:

يتحير الشعراء إن سمعوا به ... في حسن صنعته وفي تأليفه

شجر بدا للعين حسن نباته ... ونأى عن الأيدي جما مقطوفه

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعاً غزير الشعر، وسلكه ابن خلكان في طبقة ابن الرومي والبحتري، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم في موضوعات شتى، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينيرون من المشكلات الصعبة، يقول:

مطالع الحق ما من شبهة غسقت ... إلا ومنهم لديها كوكب يقد[١]

ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأنس، وصب أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومصيداته وآلاته. ويكفي لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد "كشاجم" يجعل أشعاره ركناً أساسياً صنع "كتابه المصايد والمطارد" فقد اعتمد فيه على طردياته اعتماداً شديداً، وأول ما نقف عنده في هذا الكتاب طردية له في صيد أحد الكلاب يستهلها على هذا النمط:

قد اغتدى والفجر في حجابه ... لم يحلل العقدة من نقابه

بأغضف عيشه من عذابه ... من صولة بظفره ونابه[٢]

يراح أن يدعى ليغتدى به ... روحة ذي النشوة من شرابه[٣]

يخط بالبرثن في ترابه ... خط يد الكاتب في كتابه[٤]

والطريف في هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحاً لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه، وأيضاً فإنه جعله يشعر بنشوة ما بعدها نشوة حين يندبه صاحبه للصيد، وتستحيل

---

[١] غسقت: دجت وأظلمت . يقد: يشتعل .

[٢] أغضف: مسترخي الأذن .

[٣] يراح: يجد خفة ونشاطاً .

[٤] البرثن: المخلب .

الأرض كأنها مشق أو صحيفة وهو يخط فيها ببراثنه، ويتبع كشاجم هذه الطردية بطردية أخرى تطرد على هذا السياق:

| | |
|---|---|
| يا رب كلب ربه في رزقه | يرى حقوق النفس دون حقه |
| متبعاً بخلقه لخلقه | كأنما يملك عقد رقه |
| يصونه بجله ودقه | كآمل من مالك لعتقه[١] |
| تراه في تسريحه وربقه | كعاشق أضناه طول عشقه[٢] |
| أصفر يلهى العين حسن خلقه | كذهب أبرزته من حقه |
| ذو غرة فارقة لفرقه | وذو حجول بينت عن سبقه[٣] |

وقد جعل الناشئ رب هذا الكلب وصاحبه يقدمه على نفسه في غذائه، ويأتسى به، حتى لكأنما يشتق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع الذي يملك رقه، وإنه ليرعاه في كل كبيرة وصغيرة، وكأنه عبد يتقرب لمالكه بكل ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حريته. ويعود إلى فكرة عشق الكلب للصيد، فيجعله حين يكون في رقبته وحبله كعاشق طال عليه البين والهجران، حتى أصابه ضنى شديد، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغرته في جبهته وحجوله في سيقانه، وبياضها يلمع في أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع. وله في البازي طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله، وفيه يقول:

| | |
|---|---|
| ألبسه الخالق من ديباجه | ثوباً كفى الصانع من نساجه |
| حال من الساق إلى أوداجه | وشياً يحار الطرف في اندراجه[٤] |
| في نسق منه وفي انعراجه | وزان فوديه إلى حجاجه[٥] |
| بزينة كفته عز تاجه | وظفره يخبر عن علاجه |
| لو استضاء المرء في إدلاجه | بعينه كفته عن سراجه |

---

[١] الحل والدق: الكثير والقليل .

[٢] الربق: من الربقة وهي حبل يشد منه الكلب .

[٣] الخجول: بياض في سيقان الكلب .

[٤] الأوداج: عروق في العنق .

[٥] الحجاج: عظم الحاجب .

فالخالق جل شأنه كساه ثوباً من الديباج يملأ النفس إعجاباً بوشيه وخطوطه ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه، وكأنما حلاه بتاج كتاج الملوك المتألق بحليه وزينته، ويذكر مخالبه الحادة حدة الإبر، وعينه المضيئة ضياء السراج في الليالي الداجية. وينظم في الصقر غير طردية، وفي إحداها يقول:

سباه من كان به خليقا فرخاً صغيراً ما أقل موقا

زينه برأيه شفيقا كما يصون العاشق المعشوقا

حتى انتهى وحمل الحقوقا ونفع الصاحب الصديقا

وهو يصور تدريب صاحبه له، وكيف أنه رباه صغيراً وما زال يرعاه محباً له حب العاشق لمعشوقه، وما زال يثقفه ويدربه على الصيد، حتى مهر فيه، وحتى أصبح يجلب من الإوز وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحباءه. ومن قوله في وصف شاهين:

يظل من جناحه المزين في قر طق من خزه الثمين[١]

يشبه في طرازه المصون برد أنو شروان أو شيرين

ذو منسر محدد مسنون واف كشطر الحاجب المقرون

منعطف مثل انعطاف النون

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التي تجعله يلبس قرطقاً أو قباء مفوفاً من الحرير كأنه ثوب أنو شروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز. وإن منسره أو مخلبه المنحنى كحرف الراء ليشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون. وله طردية طريقة في وصف صيد الطير بالجلاهق أو البندق ،تحدث فيها عن صيد الكراكي. وهي طير طويل المنقار والرجلين، مفرده كركي، ويسمى الغرنيق وجمعه غرانق، ويطرد وصفه عند الناشئ على هذا النمط:

ومورد يجذل قلب الوامق منظم بالغر والغرانق[٢]

وكل طير صافر أو ناعق مكتهل وبالغ ولاحق

موشية الصدور والعواتق بكل وشى فاخر وفائق[٣]

---

[١] القرطق: قباء ذو طابق واحد . الغر: ير الغرانق: الكراكي .

[٢] يجذل: يسر . الوامق: مديم النظر .

[٣] العواتق: الكواهل .

تختال في أجنحة خوافق كأنما تختال في قراطق

يرفلن في قمص وفي يلامق كأنهن زهر الحدائق [١]

حمر الحداق كحل الحمالق كأنما يجلن في مخانق[٢]

وهو يصور مورداً عذباً قلب الناظر إليه رصع بالطير والكراكي من صافرة وناعقة وكبيرة وصغيرة، إذ وشيت في صدورها وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل في كسوة ذات تلاوين حتى لكأنها زهر حدائق مختلف الأصباغ والنقوش. وهي هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوق أعناقها القلائد الباهرة. وفي كتاب المصادي والمطارد بجانب الطرديات السابقة طرديتان في صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره في إحداهما بهذه الصورة الفذة:

رب ذي شبلين قسورة قد أحم الحين في أجمه[٣]

لا ترى حيا يطيف به لا، ولا يدنو إلى حرمه

كمجن الحرب هامته وكغور الغار رحب فمه[٤]

وكأن البرق ما قدحت عينه باللحظ من ضرمه

وكأن الموت معترض بين لحييه وملتثمه

وهو يقول إن هذا الأسد القسورة هبط به القضاء في عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمون بحرمه مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفزع والهلع، ويقول إن هامته كانت مثل ترس حرب صلابة وقوة، وكان فمه كالغار يسقط فيه كل ما يقضمه، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف، وكأن الموت كان يجثم على فمه بين لحييه وملتثمه.

وللناشئ وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقا كان صاحب شاعرية خصبة، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التي أعدته ليحاور ويداور أرسطو والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة، ولا ريب في أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة في عصره يونانية وغير يونانية، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول في خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئاً من هذا القول،

---

[١] اليلامق: جمع يلمق وهو نوع من القاء .

[٢] الحمالق: جمع حملاق ، وهو باطن جفن العين . المخانق: القلائد .

[٣] أحم: نزل الحين: الموت . الأجم: بيت الأسد .

[٤] المجن: الترس .

إنما أوردوا له هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما في الفصل الرابع وهما في وصف سحاب هاطل.

وفي الحق أنه كان يعرف كيف يولد الصور وكيف يستخرجها من مكامنها وكيف ينظمها شعراً عذباً، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجاباً على شاكلة قوله:

متعاشقان مكاتمان هواهمنا　　قد نام بينهما العتاب فطابا

يتناقالان اللحظ من جفنيهما　　فكأنما يتدارسان كتابا

وقوله:

يلوح في خده ورد على زهر　　يعود من حسنه غضاً إذا قطفا

والزهر في البيت طبعاً هو زهر النرجس الذي تشبه به العيون، وعبر عن القبلة بأنها اقتطاف لورد الحدود، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غضة إلى أول مجتناها وباكورته. وله:

ليس شيء أحر في مهجة العا　　شق من هذه العيون المراض

والخدود المضرجات اللواني　　شيب جريالها بحسن البياض

وطروق الحبيب والليل داج　　حين هم السمار بالإغماض

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تدلع في قلب العاشق قطعاً من النار، وتدلع فيه نفس القطع الخدود المشربة بالحمرة، ويشعله إشعالاً، زيارة المحبوبة ليلا، وقد هم السمار بالنوم. والقطعة جيدة، ويبدو أنه كان قريباً من نفوس الجواري في بلدته، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب في بعض المنتزهات ومعهم قينة محسنة طبية الصوت، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدها مقطوعة له ختمها بقوله:

وقد آذنونا بوقت الرحيل　　فإن كنت تهويننني فأرحلي

يقول ابن المعتز: فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت في قلبها النيران، وكانت تهواه ويهواها، فقامت وارتحلت معه، لكفلها به. واجتمع مع رفاق آخرين، ودعوا مغنية، فجاءت ومعه رقيبة جميلة، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة كتب فيها، موجهاً حديثة إلى تلك الرقيبة:

فديتك لو أنهم أنصفوك　　لردوا النواظر عن ناظريك

تردين أعيننا عن سواك　　وهل تنظر العين إلا إليك

وهم جعلوك رقيباً علينا　　فمن ذا يكون رقيباً عليك

ألم يقرءوا– ويحهم– ما يرو ن من وحي حسنك في وجنتيك

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ، وهي ملكة استطاع أن يغذوها بالثقافات المعاصرة له، فإذا هي تصقل وإذا هي تزداد خصباً، وإذا الناشئ لا يزال يطرف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة.

٥

## شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربي دائماً كان موصولاً بالشعب، اتصل به في العصر الجاهلي، فقد كان الشاعر وشعره صورة لقبيلته، وظلت له هذه الصلة في العصر العباسي الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقل الشعور بالروح القبلية، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جداً بينما ظل الشعور بالروح الجماعية حياً مشتعلاً. وكان من أهم العوامل في ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى من عاش من هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفي قصورهم ظل موصلاً بروح الشعب، فهو يتغني بتقوي الخليفة وبما ينشر من العدالة التي لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية. وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب علي هذا النحو فأولي لغيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوي. وحتى حياة المجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يحسها الشعب وتعيشها علي الأقل في تلك الأعياد أسراب منه. أما شعر الزهد والتصرف فكان يلقي علي العامة وكان من وحي حياتها وما يسري فيها من شظف وضنك وإعسار. وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبي الذي نتحدث عنه، فنحن نريد منه نوعاً خاصا، هو النوع الذي يصور ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومن لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون في النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصي ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أي جهد ودون أن يحتملوا أي عناء، علي حين ترزح عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضة جائعة ظامئة، غير آمنة من العبث والطغيان اللذين صورناهما في فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء الذين صورناهما في فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والإمعان في البؤس والتعاسة. ومن المؤكد أن جل ما نظموه ضاع، لأنهم من أبناء الشعب، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف، وحتى ما سجل من هذا الشعر لم يسجل معه اسم صاحبه إلا نادراً[1].

---

[1] انظر المحاسن والمساوي للبيهقي "طبعة مكتبة نهضة مصر" بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٤٨/١ وما بعدها.

وقد هيأ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تعرف بالمكدين، وأول من تحدث عنهم الجاحظ في مطالع كتابه البخلاء، وهو يورد فيه أسماءهم وحيلهم في اقتناص الدراهم من الناس ويصور البيهقي أعمالهم ونوادرهم[١]، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء، وهم يكونون في العصر طبقة كبيرة، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس.

وخير من يصور طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العبر[٢] العباسي الذي عاش في هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عاماً يحيا حياة جادة إلى أن ولي المتوكل فترك الجد وعدل إلى الحمق والشهرة به، ويقال إنه لم يكن في عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخبز، وفي بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداث الهزل، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عرف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه: أول ما تصنعون قلب الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت؟ وإذا أمسى كيف أصبحت؟ وإذا قال لي: تعال، تأخرت إلى الخلف. ويقال إنه حاول أن يلفت المتوكل إليه فقلب زيه إذ جعل في رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خفاً (حذاء) وجعل سراويله قميصاً وقميصه سراويل. فلما لمحه المتوكل قال على بهذا المثلة ودخل عليه فقال له: أنت شارب إني أضع الأدهم (القيد) في رجليك وأنفيك إلى فارس، فقال توا: ضع في رجلي الأشهب وانفني إلى راجل، فقال المتوكل أتراني في قتلك مأثوم؟ فقال: بل ماء بصل، فضحك المتوكل. ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أي شاعر بالجد، وقد اتخذه في مجلسه أضحوكة، فكان يرمي به في البركة التي وصفها البحتري في بعض مدائحه، وتطرح عليه الشباك ويصاد، ويخرج وهو يقول:

ويأمر بي ذا الملك　　فيطرحني في البرك

ويصطادني بالشبك　　كأني بعض السمك

وسأله ثعلب العالم النحوي المشهور: الظبي معرفة أو نكرة ؟ فأجابه: إن كان مشوياً على المائدة فمعرفة وإن كان في الصحراء فهو نكرة، فقال ثعلب له: ما في الدنيا أعرف منك بالنحو. وكان يجلس الغلمان "الأدباتية" إليه ليسجلوا كلامه، مما جعله يصنف لهم كتاب جامع الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة، ويروي أن غلاماً سأله: لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمأة (ثمرة صحراوية أرضية) فأجابه: لأن الشاة ليس لها

---

[١] المحاسن والمساوي ٤١٣/٢.

[٢] أنظر في أبي العبر وحياته وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٣٢٣ والأغاني (طبع الساسي) ٨٩/٢٠ والفهرست ص ٢٢٣ والوافي بالوفيات (طبع استانبول) ٤١/٢.

منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار. وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المكدين من الأدباتية وغير المكدين، وسئل عن لغته التي يتكلم بها وما فيها من استحالات أي شيء أصلها؟ فقال: إنني أبكر فأجلس على الجسر ومعي دواة وقرطاس فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمكارين حتى أملأ القرطاس من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه. وكان ما يزال يغرب في كل ما ينظم من شعر، ملتزماً للغة العامة وما يشبهها، ومن قوله في بعض غزله:

وباض الحب في قلبي فواويلي إذا فرخ

ويستمر في مثل هذا الهزل، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعراء جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره ، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلي البارد المضطرب الوزن قوله:

أنا أنا أنت أنا أيا أبو العبرنه

أنا الفتى الحمقوقو أنا أخو المجنه

أنا أحرر شعري وقد يجى بردنه

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلاً وطلباً لإضحاك من حوله. وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة، وقد اتخذه الشعراء "الأدباتية" الذين خلفوه إماماً لهم في مثل هذا الهزل وما كان يسلكه في أشعاره من ألفاظ العامة وأساليبهم الركيكة.

ومن شعراء الكدية الذين ذهبوا مذهب أبي العبر في التحامق والهزل أبو العجل وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة، وأي حرفة، لقد درت عليه خيراً كثيراً وأموالاً وبغالاً وغلماناً، يقول:

أيا عاذلي في الحمق دعني من العذل فإني رخى البال من كثرة الشغل

ومرني بما أحببت آت خلافة فإن جئتني بالجد جئتك بالهزل

وإن قلت لي: لم كان ذاك؟ جوابه لني قد استكثرت من قلة العقل

فأصبحت في الحمقى أميراً مؤمراً وما أحد في الناس يمكنه عزلى

وصير لي حمقى بغالاً وغلمةً وكنت زمان العقل ممتطياً رجلي

فلا داعي للعذل واللوم فإن حرفة الكدية جعلته سيداً مطاعاً وأثرته ثراء واسعاً، وأصبح الناس لا يضيقون به، بل يرحبون به في كل مكان. وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون في بلدان

العراق وغير العراق، جوالين مكثرين من الأسفار في الاحتيال لجلب الأموال، وفي ذلك يقول أبو العجل لبعض من عذلوه على كديته وحرفته:

أعلى الحماقة لمتني ... قد كنت مثلك أولاً

فدخلت مصر وأرضها ... والشام ثم الموصلا

وقرى الجزيرة لم أدع ... فيها لحي منزلاً

إلا حللت فناءه ... بالعقل كي أتمولا

وممن اتخذ الكدية حرفة في العصر أبو عبد الله اليعقوبي وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل، وروي له المرزباني أشعاراً[١] تدخل في الزهد. ونقف قليلاً عند جحظة والخبز أرزي وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية.

## جحظة[٢]

اسمه أحمد بن جعفر من نسل البرامكة، كان شاعراً حسن الشعر، وكان يحسن الغناء على الطنبور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبيخ والنجوم، وله في الطنبوريين كتاب غير كتب أخرى في عدة فنون، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومنادمة حاضر النادرة. وابن المعتز هو الذي لقبه بجحظة لقبه الذي اشتهر به إذ كان في عينيه نتوء شديد، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون، وفي ذلك يقول ابن الرومي:

وارحمتا لمناديه تحملوا ... ألم العيون للذة الآذان

وكان الخليفة المعتمد يقربه منه، ولكن بيوت الخلفاء لم تفتح له بعده، وفتحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتفي وابن مقلة وزير المقتدر. وكان لا يبقي على شيء يصله من خليفة أو أمير أو وزير، فأكثر أيامه كانت بائسة، ولولا صنعته الطنبورية لعاش معدماً. وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التعسة، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورون عنه لا لدمامته فقط، بل أيضاً لما قيل من أنه كان دائماً وسخ الثياب، وكان شيعياً، فانصرف عنه كثيرون وأغلقوا أبوابهم في وجهه. وكل ذلك كان يدفعه دفعاً للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلقون بعشره، فما إن ينظم شعراً حتى يدور في بغداد وحتى تتناقله المجالس

---

[١] معجم الشعراء ص ٣٩٩.

[٢] راجع في جحظة وأخباره واشعاره تاريخ بغداد ٦٥/٤ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢٤١/٢ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر الآداب ١٣٧/٢ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبري ص ٨ ، ١٩ والنجوم الزاهرة ٢٥٠/٣.

ويرويه الشباب وغير الشباب، حدث هو نفسه، قال: كنت يوماً عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نعلي فلم أجده، فجعلت أقول:

يا قوم من لي بنعلي أو في مصحف نعل

يقصد بغلا يركبه. يقول: فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان. وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضاً، وكثير منها يحكى قصة بؤسه من مثل قوله:

أنا الذي دينه إسعاف سائله والضر يعرفه والبؤس والعدم

أنا الذي حب أهل البيت أفقره فالعدل مستعبر والجور مبتسم

وهو يعلل لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا، وكأنما عملت عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثر جوانبها ضيق وإقلال في الرزق، وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يصدر عنها بمثل قوله:

أحمد الله لم أقل قط يا بد ر ويا منصفاً ويا كافور

لا، ولا قلت أين أين الشواهـ ين ووزاننا وأين البذور[1]

لا، ولا قيل: قد أتاك من الضيـ ـعة بر موفر وشعير

أنا خلو من المماليك والأمـ لاك جلد على البلا وصبور

ليس إلا كسيرة وقديح وخليق أتت عليه الدهور

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتظ بهم داره من مثل بدر ومنصف وكافور، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزان يزن الحصاد، لأنه ليس من أصحاب الضياع الذين يجنون من ضياعهم البر والشعر. ليس عنده أملاك ولا مماليك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان، عنده ما يقوته من كسرة وقدح ماء وثوب خلق أكل الدهر عليه وشرب، وقلبه يمتلئ حسرة ولوعة، فغيره يتقلب في أعطاف النعيم وهو يتقلب في أشواك الحسرات والشقاء والعناء، يقول:

الحمد لله ليس لي كاتب ولا على باب منزلي حاجب

ولا حمار إذا عزمت على ركوبه قيل جحظة راكب

ولا قميص يكون لي بدلا مخافةً من قميصي الذاهب

---

[1] الشاهين هنا: عمود الميزان.

وأجرة البيت فهي مقرحة أجفان عيني بالوابل الساكب

إن زارني صاحب عزمت على بيع كتاب لشبعة الصاحب

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهماته كسى كسوة حسنه، ولا قميص له جديد بدلاً من قميصه البالي، وما أشد كدره، فأجرة البيت وعجزه عن سدادها ينغصانه، بل يبكيانه، حتى لقد تقرحت أجفانه لكثرة بكائه، ولا من رحيم يرق قلبه له أو يعطف عليه. وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشتري له بعض ما يقيم أوده. فيا للبؤس ويا للظلم الصارخ الذي جعل أبناء الشعب يكدحون ويضنون والحكام يجنون ويقطفون ثمار أعمالهم ولا يبقون لهم منها إلا الذل والهوان. وينتابه مراراً الشك في حرفته الأدبية وتآليفه وما ينظم من أشعار، فيقول:

حسبي ضجرت من الأدب ورأيته سبب العطب

وهجرت إعراب الكلا م وما حفظت من الخطب

ورهنت ديوان النقا ئض واسترحت من التعب

فهو قد صمم على أن يهجر حرفة الأدب التي لم يجن منها سوى الشقاء والعناء أما كتاب النقائض بين جرير والفرزدق فمع نفاسته رهنه ليسد به رمقه، وكأنما أحس فيه وفي غيره من كتب الأدب التي صمم على هجرانها أعباء ثقالا كانت تبهظ كتفيه، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح.

وكان طبيعياً أن يشتد سخطه- مع أبناء الشعب- على فساد الحياة السياسية في عصر المقتدر وأن يصب جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد في النعيم، ولا ضير من أن يعيش الشعب في الجحيم، لذلك كان طبيعياً أن يتمنى للوزراء أن تحيق بهم الكوارث حتى يتخلص الشعب من ظلمهم وفساد حكمهم. ويروي أن بعض أصدقائه دخل عليه في عصر المقتدر، فقال له: ما تتمنى ؟ فقال توا: لم يبق لي مني غير نكبات الوزراء، فقال له: قد نكب ابن الفرات، فقال جحظة على البديهة:

أحسن من قهوة معتقة تخالها في إنائها ذهبا

من كف مقدودة منعمة تقسم فينا ألحاظها الوصبا[1]

---

[1] مقدودة: رشيقة القد . الوصب: التعب.

نعمة قوم أزالها قدر　　لم يحظ حر فيها بما طلبا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشي السكارى بالخمر نشوة لا تعدلها نشوة. ويشمت به لأن أحداً لم يصب شيئاً مما كان فيه من نعمة، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب، إذ كان يملأ الأرض ظلماً وشراً ونكراً، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التي حرمت الأحرار كل بر وكل خير. وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم، وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء في قالب فكه من مثل قوله في صديق:

دعاني صديق لي لأكل القطائف　　فأمعنت فيها آمناً غير خائف

فقال وقد أوجعت بالأكل قلبه　　رويدك مهلاً فهي إحدى المتالف

فقلت له: ما إن سمعنا بهالك　　ينادي عليه: يا قتيل القطائف

وكانت القطائف صادفت منه مسبغة وجوعاً شديداً، فأكل منها أكل النهم وصديقه ينظر إليه شزراً، فقال له: إني أخاف عليك التخمة، بل التلف والهلاك، فرد عليه هذا الرد الظريف. وله في قوم بخلاء يحفظون القرآن:

وقد حفظوا القرآن واستعملوا　　ما فيه إلا سورة المائدة

وتروى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على الرغم من قبح وجهه ورثاثة ثيابه. وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع الإحساس طويل اللسان. ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجاب وغير الحجاب والوزراء، وخاصة البخلاء منهم، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع شعره على ألسنة الصبيان في الشوارع والأزقة. ومن قوله في ثقيل:

يا لفظة النعي بموت الخليل　　يا وقفة التوديع بين الحمول

يا طلعة النعش ويا منزلا　　أقفر من بعد الأنيس الحلول

يا نعمة قد آذنت بالرحيل　　ونكسة من بعد برء العليل

ويستمر طويلاً في وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التي تجعله تمثالاً لكل شر، وكأنما تجمعت له شرور الحياة في أسوأ صورها، لكي يصمه بما يشاء منها، وتتوالى الشرور في أبشع هيئاتها، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل. وكان يلم بالديارات، وقد روي الشابشي له بعض أشعار في الخمر كان يغنيها على طنبوره من مثل قوله في دير أشموني ولهوه فيه:

سقياً لأشموني ولذاتها　　والعيش فيما بين جناتها

سقياً لأيام مضت لي بها ما بين شطيها وحاناتها

ويبدو أن إلمامه بالأديرة كان قليلاً لقلة أشعاره فيها، وربما كان الذي أقعده عنها بؤسه الذي كثيراً ما كان يرافقه. وله في الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله:

فقلت لها: بخلت على يقظي فجودي في المنام لمستهام

فقالت لي: وصرت تنام أيضاً وتطمع أن أزورك في المنام

وقد توفى سنة ٣٢٣ عن سن عالية، ويقال إنه عاش نحو قرن، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصور شاعريته الخصبة. وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامة، وهي أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامة في بغداد.

## الخبز أرزي[١]

اسمه نصر بن أحمد، شاعر بصري، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، وكان يخبز خبز الأرز في دكانه بمربد البصرة يتكسب بذلك معاشه، وفي أثناء عمله كان ينشد أشعاره المقصورة على الغزل، والشباب والناس يزدحمون عليه لاستماع شعره، ويتعجبون من حاله وأمره، وشعره يذيع في الناس لقرب مأخذه وسهولته. وعنى بعض معاصريه ممن كانوا ينتابون دكانه بجمع أشعاره، وجمعوا له ديواناً،وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه، ويقول المسعودي فيه: "أحد المطبوعين المجودين في البديهة المعروفين بالغزل". ويقول أيضاً: "أكثر الغناء المحدث في وقتنا هذا من شعره". والخبز أرزي بكل ما قدمنا شاعر شعبي بالمعنى الكامل، فهو من بيئة شعبية، صاحب صناعة وحرفة، وهو أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وشعره يدور على كل لسان في بلدته والشباب والصبية ينشدونه في كل مكان والمغنون يغنون فيه على جميع آلات الطرب. وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالاً حسناً لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة. ومن الغريب أن نجد الثعالبي في اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وطي أشعاره لسفسفة كلامه، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه، فرأى أن يضمن كتابه "اليتيمة" لمعاً من شعره علقت بحفظه، وفي الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفح لباقي شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح لإلحاقه باليتيمة من ملحه. وبذلك فوت على نفسه عملاً أدبياً ونقدياً جليلاً كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه، بل لعله يرفعه درجات، إذ يحتوي مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تعرض كاملة، حتى يرى مدى ما حدث من تطور في اللغة

---

[١] أنظر في الخبز أرزي وحياته وأشعاره اليتيمة ٢٦٧/٢ ومروج الذهب ٢٥٩/٤ وابن خلكان في نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة ٢٧٦/٣ وديوان المعاني ٢٧٢/١ ، ٢٩٧ وزهر الآداب ١٣٧/٢ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩.

الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى، سواء في جوانبها اللغوية أو الأسلوبية، ويرى أيضاً مدى ما ظل بينهما من تواصل. ولكن هذا غاب عن ذهنه، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية. ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة. ومن ملحة التي رواها له قوله:

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولى تمشي إلى عبد

أتى زائراً من غير وعد وقال لي ... أصونك عن تعليق قلبك بالوعد

فما زال كاس الوصل بيني وبينه ... يدور بأفلاك السعادة والسعد

فطوراً على تقبيل نرجس ناظر ... وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

وفي كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رقته وأنه يخشى عليه من تعلق لقلبه بالانتظار، والبيتان الثالث والرابع جيدان في التصوير. ومما روى له الثعالبي أيضاً من ملحه قوله:

كم أناس وفوا لنا حين غابوا ... وأناس جفوا وهم حضار

عرضوا ثم أعرضوا واستمالوا ... ثم مالوا وجاوروا ثم جاروا

لا تلمهم على التجني فلو لم ... يتجنوا لم يحسن الإعتذار

والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يفقه صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيهافقها حسناً. فوفوا تقابل "جفوا" وغابوا تقابل "حضار" وبين كل كلمتين متعاقبتين في البيت الثاني جناس وطباق محكمان، وحسن التعليل واضح في البيت الأخير. والكلمات عذبة حلوة خفيفة. ومن ملحه قوله:

رأيت الهلال ووجه الحبيب ... فكانا هلالين عند النظر

فلم أدر من حيرتي فيهما ... هلال الدجى من هلال البشر

ولولا التورد في الوجنتين ... وما راعني من سواد الشعر

لكنت أظن الهلال الحبيب ... وكنت أظن الحبيب القمر

والخيال جميل، وأحاله إلى طرفه نفيسة حقاً بتلك الحيرة التي انتابته، فلم يدر أين هلال الدجى وأين هلال البشر، ثم أخذ يتأمل، وبعد أناة طويلة لاحظ تورد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقاً في حيرته. ومن ملحه:

قد كان لي فيما مضى خاتم ... فاليوم لو شئت تمنطقت به

وذبت حتى صرت لو زج بي ... في مقلة النائم لم ينتبه

وهي مبالغة واضحة فيما أصابه من ضناً بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه. فحتى المبالغة التي كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدها عنده، وكأنه توفر على الشعر في عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته، وحتى تمثله بجميع مقوماته وخصائصه. وكان خفيف الروح فكهاً مما جعله محبوباً عند أهل البصرة في حياته وبعد مماته. ومن طريف ماله قوله في قلة الطعام على مائدة أحد أصدقائه:

ولعمري كان الخوان ولكن ... لم يكن ما يكون فوق الخوان

وجفان مثل الجوابي ولكن ... ليس فيهن ما يرى بالعيان[1]

فإذا ما أدرت فيها بناني ... لم أجد ما أمسه ببنان

إنني ما ضغ على غير شيء ... غير صك الأسنان بالأسنان

ترجع الكف وهي أفرغ منها ... عند مدى لها فدأبي وشأني

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصري خاصة مما جعلهم يتعلقون به تعلقاً شديداً. ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التي كان ينشدها في خبزه للأرز قصائد طويلة، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة استهلها بقوله:

بات الحبيب منادمي ... السكر يصبغ وجنتيه

وواضح مما أنشدنه له انه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبي بالمعنى الدقيق، فقد نظمه صانع من صناع الشعب، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب به وعرضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة، فهو ليس ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدم أشعاره للجمهور، مبتغياً إرضاءه بتصويره لأحاسيسه في الغزل، وباتخاذه لغته السهلة التي لا تجد في فهمها أي عسر أو مشقة. وقد لبي نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة، ويقول المسعودي أشيع أن الوزير البريدي غرقه لأنه كان هجاه، وقيل: بل فر من البصرة إلى هجر والبحرين وتوفى هناك، ومهما يكن فقد حزنت البصرة وشبابها لوفاته، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلاً.

---

[1] الجوابي: أحواض الماء.